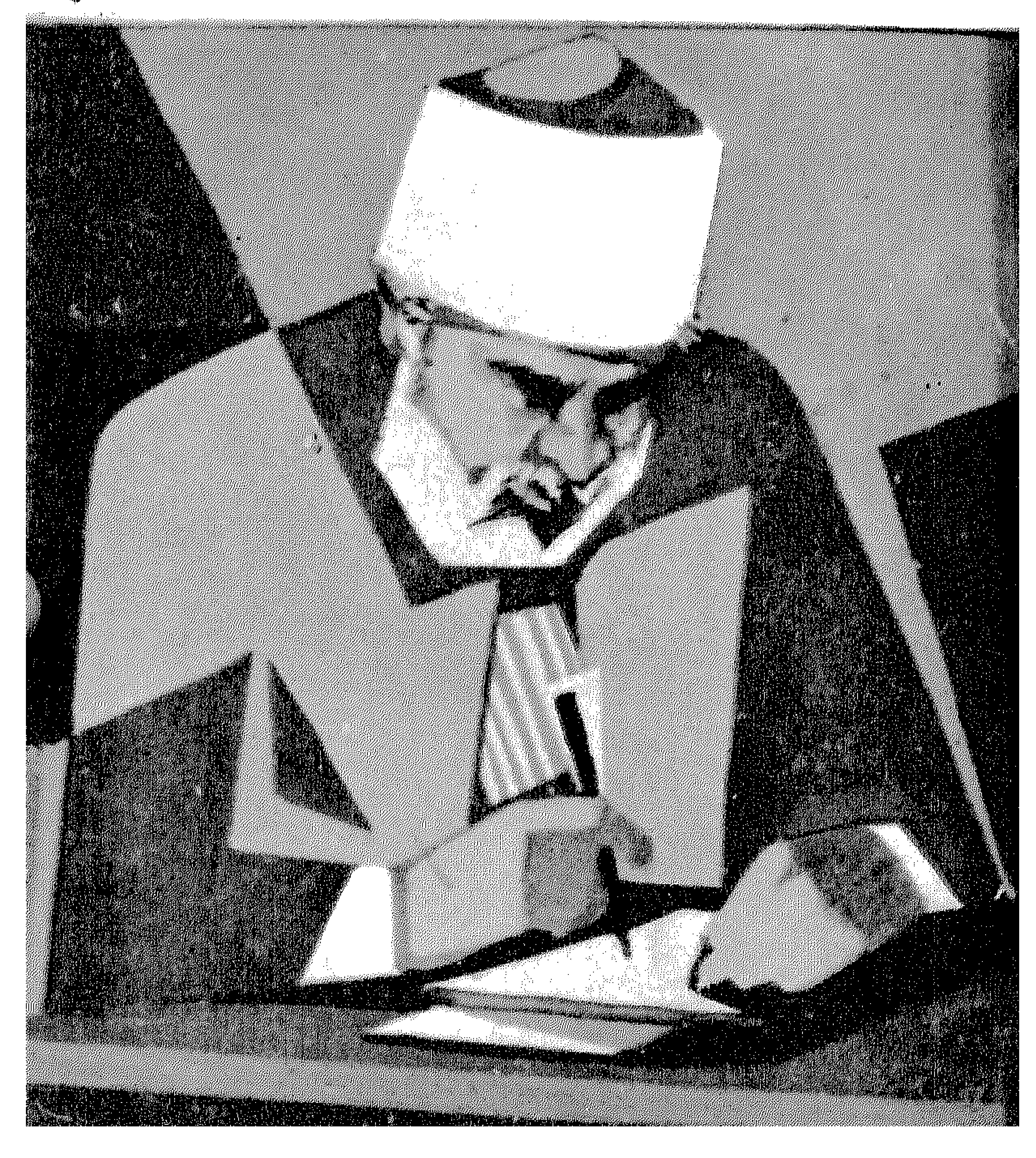
كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

رسالة التوحيد
للإمام محمد عبده

د. محمد عماره



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٥٥ ـ شعبان ١٤٠٠ ـ يوليه ١٩٨٠

No. 355 — Guly 1980

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

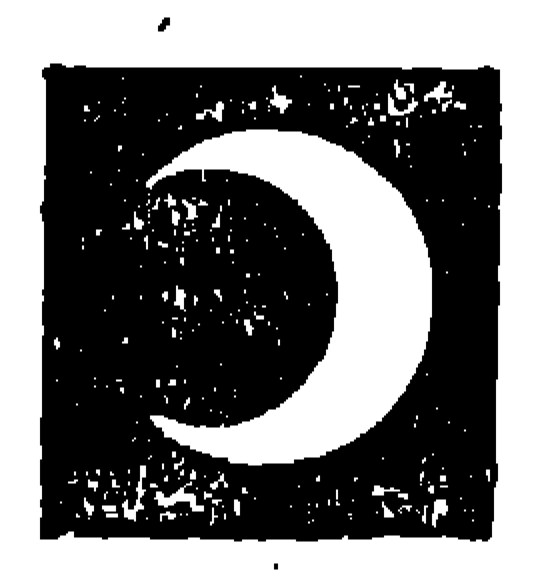
تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ـ ١٢ عددا ـ فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى • وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى • وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى •

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج٠ م٠ ع٠ بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف : ريشـــة
الفنانة : سميحة حسنين



دراسة وتحقيق

الدكتور محمد عمارة

دار الهلال

هـــذه الرســـالـــة

ان كتابا يكون موضوعه :

- الله ، جل جلاله .. وصفاته .. وافعاله ..
- والانسان .. ومكانته وافعاله ..
- والرسالة والنبوة ــ عامة ــ ولمحمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، على وجه الخصوص ..
- والقرآن الكريم .. معجزة الاسلام ورسوله ..
- ثم .. هذه العقـــائد والأصول ، كما تبلورت فى الشريعة الاسلامية ــ وهى رســالة الله الدينية الى محمد وأمته .. ورسالة العرب الحضارية الى الانسانية جمعاء ! ..

ان كتابا يكون هذا موضوعه لهو على جانب عظيم من الخطر والأهمية ... وهــذا هو موضوع (رســـالة التوحيد) ؟! ..

وعنــدما يــكون كاتب (رسالة التوحيد) هذه هو الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ــ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ــ ١٩٠٥ م) ، ابرز أعلام مدرسة التجـــديد الدينى فى عصرنا الحديث . فان هذه (الرسالة) تزداد اهمية . وموضوعها يتزايد خطرا ؟! ..

فقبل عصر يقظتنا وتنويرنا ونهضتنا ، التى أسهمت مدرسة التجديد الدينى هذه فى صنعه بالنصيب الأوفى ، كانت عقائد هذه الأمة واصول دينها قد رانت عليهـا الجهالات والبدع والخرافات .. وتحولت اغلب كتب (التوحيد) خلال العصر « المملوكى ـ العثمانى » الى « متون » و « حواشى » تمتلىء بالجدل اللفظى العقيم ، وتغرق عقل هذه الأمة فى طوفان من القصص الخرافى والاسرائيليات ! ..

ثم كانت (التعليقات) التى أملاها رائد مدرسة التجديد الدينى جمـــال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ــ ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ ــ ١٨٩٧ م) على تلاميذه .. وهى (التعليقات) التى قدمها على « شرح الدوانى (١) للعقائد العضدية (٢) » .. كانت هذه التعليقات أول نص حديث فى الالهيات الاسلامية ، ينظر فى عقائد الأمة بعقل مستنير ، ويقدم لها ــ مع النقد والاضافة ــ فكر فلاسفتها الالهيين ، الذين صنعوا بابداعهم عصر الازدهار الحضارى للعرب والمسلمين ..

لكن هذه (التعليقات) قد ظلت ــ لعمقها الشديد وتخصصها الأشد ــ كتابا « للخاصة » من المفكرين المتفلسفين (٣) ! ..

---

(١) جلال الدين الدوانى (٨٣١ ــ ٩١٨ هـ ١٤٢٧ ــ ١٥١٢ م) من فلاسفة الاسلام وقضاة فارس فى عصره .. كتب بالفارســية الى جانب العربية ، وترك مشروحا على عدد من نصوص علم الكلام .

(٢) عضد الدين الايجى (٧٥٦ هـ ١٣٥٥ م) من علماء الكلام والاصول واللغة والبلاغة والتاريخ ، وكتابه : (المواقف) أحد المراجع الشهيرة فى علم الكلام .

(٣) حققنا هذه (التعليقات) ونشرناها فى الجزء الاول من طبعتنا الجديدة (للاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى) بيروت سنة ١٩٧٩

ومرت السنوات .. وجمهور هذه الأمة وعامة مثقفيها يتطلعون الى كتـــاب فى « الالهيات » ، يصحح لهم العقيدة ، ويحرر فيهم العقـــل ، ويمثل فى مكتبتهم رأى مدرسة التجديد الدينى فى أصول الدين وعقائده ، حتى كانت هذه الرسالة ـ (رسالة التوحيد) ـ التى كتبهـــا الأستاذ الامام ، لتنهض بهذا الدور الهـــام والعظيم ! ..

***

ونحن ، فى هـــذه الدراسة التى نقدم بهـــا هـــذه الطبعة من طبعات (رسالة التوحيد) ، لن نعمد الى الترجمة لحيـــاة الأستاذ الامام ، ولا الى الحديث عن فكره التجديدى والدور الذى نهض به فى تحرير عقل الأمة العربية الاســـلامية من قيود التقليد والخرافة ، وأثر ذلك فى التنوير والنهضة اللذين جعـــلا العرب والمسلمين يتجاوزون عصورهم المظلمة الى رحاب عصرهم الحديث ! .. لن نتحدث ، هنا ، عن ذلك ، لأننا قد صنعناه عندما قدمنـــا (للأعمال الـــكاملة للامام محمد عبده) بدراسة مستفيضة اقترب عدد صـــــفحاتها من الثلاثمائة ــ وهى الدراسة التى نرجو أن نقدمهـــــا ، قريبا ، فى كتاب مستقل ، ليتيسر الحصول عليها لجمهور أوسع من جمهور (الأعمال الـــكاملة) (١) .. وأيضا .. فلقد سبق وترجمنا للأستاذ الامام فى « كتيب » عن (سيرته وأعماله) (٢) .. ثم فى نهاية كتابنا عن « الاسلام

---

(١) صدرت الطبعة الاولى من هذه الاعمال ، ببيروت ، سنة ١٩٧٢ م .. وتحت الطبع الان ، طبعتها الثانية .

(٢) صدر عن « دار القدس » ببيروت ..

والمراة فى راى الامام محمد عبده » (١) عقدنا فصلا عن حياته ودوره فى التجديد .

فقط .. نريد هنا أن نشير ـ مراعاة للحيز ، والمقام ـ الى نقاط تلقى بعض الضوء على (رسالة التوحيد) التى نقدم بين يديها :

● فهذه الرسالة هى واحدة من أهم نصوص الأستاذ الامام .. تلك النصوص التى اقتربت صـــفحاتها ـ فى (أعماله الـكاملة) من الأربعة آلاف صفحة ! .. وذلك لخطر موضوعهـــا ، وللمنهج التجديدى العقلانى المستنير الذى عالج الأستاذ الامام به هذا الموضوع .. فموضوعها هو « علم التوحيد » ، وهو ـ كما يقول الامام: « ركن العلم الشديد » ! ... كما تتجلى فى أسلوبها خصائص أســلوب الأستاذ الامام ، كرائد فى التجديد للغة هذه الأمة وأسلوب كتابتهــا ، بعـد عصر الركاكة والمحسنات اللفظية .. الأمر الذى ييسرها للجمهور ، ويجعلها ـ فى ذات الوقت ـ زادا فـكريا دسما وعميقا للخاصة من البـاحثين والمفـكرين ! .. وبعبارة المؤلف فأسلوب (الرسالة) « لا يصعب تناوله ، وان لم يعهد تداوله ؟! » ، الأمر الذى يجعلها تلبى حاجة « القاصر » المقتصد ، دون أن يستغنى عنها « المكاثر » المتبحر فى العقائد والالهيات ! » ..

● وفى هذه الرسالة تبدو الروابط بين « العقائد » وبين « وظائفهــــا » فى واقع الانسان .. فللألوهية دور عظيم فى تحرير روح الانسان وعقله ... الأمر الذى جعل لهــذا الانسان مكانة سامية فى الاسلام ، مكانة الخليفة عن الله ، المدعو لأن يتخلق بأخـــلاق الله ! ..

---

(١) كتاب الهلال . نوفمبر سنة ١٩٧٩ م .

والموعود من ربه ، أن هو صنع ذلك ، بأن يصبح ربانيا ، أى مسيطرا ، بالوعي ، على قوانين حياته ، حتى ليقول للشيء : كن فيكون ؟! ..

● وفى هذه الرسالة تتجلى نصرة الاسلام « للعقل » كى يهزم « التقليد » ، الذى قتل روح الريادة والمخاطرة والابداع فى الأمة ، حتى عاشت ليل عصـــورها المظلمة فى ظل جهالة المماليك والعثمانيين ! .. فالاسلام - كما يقول الأستاذ الامام : « قد انحى على التقليد ، وحمل عليه حملة بددت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم ... لقد علا صوت الاسلام، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولـكنه فطر على أن يهتدى بالعلم ! .. ولذلك أطلق الاسلام سلطان العقل من كل ما قيـــده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، ورده الى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته ، مع الخضوع لله وحده ! .. » .

● وفى هذه (الرسالة) يظهر الاسلام « بريئا » من تلك الكهانة التى جعلت الدين حرفة يحترفها قوم انتزعوا لأنفسهم سلطان الله ، بل واحتكروا - ظالمين - هذا السلطان ، ثم سموا أنفسهم « رجال الدين » ! .. يظهر الاسلام ، فى هذه (الرسالة) « بريئا » من هؤلاء « الوسطاء » بين الانسان وربه ، بل و « عدوا » لهذه الوساطة وهؤلاء الوســـطاء ! .. فكما يقول الأستاذ الامام : « لقد مال الاسلام على الرؤساء ، فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم ، يخبرونهم كمـــا يشـاءون ، ويمتحنون

مزاعمهم حسبما يحكمون ، ويقضون فيهـــا بما يعلمون ويتيقنون ، لا بما يظنون ويتوهمون » ! ..

● وفى هذه (الرســـالة) نرى الاسلام قد أنزل « الماضى » عن عرشه ، الذى احتله بحكم انه « ماض » فقط لا غير ؟! .. فالذين يقدسون « الماضى « ، ويزداد تقديسهم له كلما أوغل فى العتاقة والقدم ، ليس موقفهم هذا من الاسلام فى شيء ... وبعبارات الأستاذ الامام : « .. فلقد سجل الاسلام الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العـــرفان .. وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطـرة سـيان ، بل للاحق من علم الأحـوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الـكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه ؟! » .

● وفى هذه (الرسالة) نرى اية كنوز يضعها الاسلام بين يدى أمته ، لافتا اليها بصرها وبصيرتها ، مهيبا بها أن تفتح هذه الكنوز الميسورة ، وتستثمرها فى النهضة واللحاق ، بل والسبق للآخرين ! ..

فاذا كان العقل ، بنظر الاسلام ، وبعبارات الأستاذ الامام « هو أفضل القوى الانسانية على الحقيقة ! »" .. فان « العقلانية الاسلامية » ـ كما تجسدها فصول هذه (الرسالة) ـ تهيىء للانسان المسلم ، « بمقتضى دينه ، أمران عظيمان ، طالما حرم منهما ، وهما :

أ ـ استقلال الارادة ..

ب ـ واستقلال الرأى والفكر ..

وبهما كانت انسانيته ! ، وبهما استعد لأن يبلغ من السعادة ما هيـــــأه الله له ، بحكم الفطرة التى فطر عليها ! » .

ثم يعقب الأستاذ الامام على ما يهيئه الاسلام للمسلم من استقلال فى الارادة ، والرأى والفكر ... فيستشهد بأقوال حكماء الحضارة الغربية التى تعزو نشأة المدنية الأوروبية الى هذا الاستقلال ! .. وكأنه بذلك يقول لنا : ان نقطة البدء ، ومصدر الانطلاق لمن يريد انهاض الأمة وتقدمها هو الاسلام .. الاسلام كما يفهمه ويفقهه عقل المسلم المستنير ، على النحو الذى تعرضه (رسالة التوحيد) ! ..

تلك « اشارات » على ما فى هذه (الرسالة) من أضواء تنير للمسلم عقله وطريقه .. وما بها من طاقات تدفع خطو هذه الأمة على درب تحـــــررها العقلى وتقدمها الحضارى نحو الأمام ! ..

فالى القارىء العربى والمسلم نقدم هذه الطبعة المحققة لـ (رسالة التوحيد) ، بعد أن قدمناها من قبل ضمن (الأعمال الـكاملة) للأستاذ الامام ..

ولعلها تـكون خير تحية لذكرى هـذا الامام العظيم فى مناســـبة مرور ثلاثة أرباع القـــــرن على وفاته فى ١١ يوليو ١٩٠٥ م ...

فخير ما نحيى به ذكرى مجدد الاسلام أن نقدم للقارىء المسلم ما يجدد الاسلام ! ..

وعلى الله قصــــد السبيل .. فهو ولى العـــون والتوفيق ...

دكتور
محمد عمارة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

(وبعد) .. فلما كنت فى بيروت ، من أعمال سوريا ، ايام بعدى عن مصر ، عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية(١) ودعيت فى سنة ١٣٠٣ (٢) لتدريس بعض العلوم فى المدرسة السلطانية ، ومنها علم التوحيد ، رأيت أن المختصرات فى هذا الفن لا تأتى على الغرض من افادة التلاميذ ، والمطولات تعلو عن افهامهم ، والمتوسطات الفت لزمن غير زمانهم .

فرايت من الأليق أن أملى عليهم ما هو أمس بحالهم . فكانت أمالى مختلفة ، تتغاير بتغاير طبقاتهم ، أقر بها

(١) الاشارة الى حوادث الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ م .
(٢) الموافقة لسنة ١٨٨٥ ـ ١٨٨٦ م .

الى كفاية الطالب ما أملى على الفرقة الأولى ، فى أسلوب لا يصعب تناوله ، وان لم يعهد تداوله ، وسير منها الى المطـــالب من غير نظر الا الى صـــحة الدليل ، وان جاء فى التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف ، راميا الى الخلاف من مكان بعيد ، حتى قد لا يدركه الا الرجل الرشـيد .

غير ان تلك الأمالى لم تحفظ الا فى دفاتر التلامذة ، ولم أستبق لنفسى منهـا شـــيئا ، وعرض بعـد ذلك ما استقدمنى الى مصر ، وكان من تقدير الله أن أشتغل بغير التعليم ، حتى أتى النسيان على ما أمليت ، وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت ، الى أن خطر لى من مدة اشهر خاطر العود الى ما تهواه نفسى ، ويصبو اليه عقلى وحسى . وأن أشغل أوقات فراغى بمدارسة شيء من علم التوحيد ، علما منى انه ركن العلم الشديد .

فذكرت سابق العمل ، وتعلق بمثله الأمل ، ولـكيلا أنفق من الزمن ما أنا فى أشد الحاجة اليه فى انشاء ما أرى التعويل عليه ، عزمت ان أكتب الى بعض التلامذة ليرسل الى ما تلقـــاه بين يدى ، وذكرت ذلك الأخى ، فأخبرنى انه نسخ ما املى على الفرقة الأولى ، فطلبته وقرأته ، فاذا هو على مقربة مما احب ، قد يحتاج اليه القاصر ، وربما لا يستغنى عنه المكاثر ، على اختصار فيه مقصود ، ووقوف عند حد من القول محدود ، قد سلك فى العقـــائد مسلك السلف ، ولم يعب فى سيره آراء الخلف ، وبعد عن الخلاف بين المذاهب ، بعد مملبه عن اعاصير المشاغب .

لـكن وجدت فيه ايجازا فى بعض المواضع ، قد لا ينفذ

منه ذهن المطالع ، واغفالا لبعض ما تمس الحاجة اليه ، وزيادة عمـــا يجب في مختصر مثله أن يقتصر عليه ، فبسطت بعض عباراته ، وحررت ما غمض من مقدماته ، وزدت ما اغفل ، وحذفت ما فضل ، وتوكلت على الله في نشره ، راجيا أن لا يكون في قصره ما يحمـل على اغفال أمره ، او يغض من قدره ، فما من أحد بأصغر من أن يعين ، ولا بأكبر من أن يعان ، والله وحده ولى الأمر وهو المستعان .

مقدمات

التوحيد : علم يبحث فيه عن وجود الله ، وما يجب أن يثبت له من صفاته ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل ، لاثبات رسالتهم ، وما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب اليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم .

اصل معنى التوحيد : اعتقاد ان الله واحد ، لا شريك له . وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه ، وهو اثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلقه الأكوان ، وأنه وحده مرجع كل كون ، ومنتهى كل قصد .

وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، كما تشهد به آيات الكتاب العزيز ، وسيأتى بيانه .

وقد يسمى علم الكلام ، اما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون هى أن كلام الله المتلو حادث أو قديم ، واما لأن مبناه الدليل العقلى ، وأثره يظهر من كل متكلم فى كلامه ، وقلما يرجع فيه الى النقل ، اللهم الا بعد تقرير الأصول الأولى ، ثم الانتقال منها الى ما هو أشبه بالفرع عنها ، وان كان أصلا لما يأتى بعدها ، واما لأنه فى بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه

بالمنطق فى تنبيه مسالك الحجة فى علوم أهل النظر ، وابدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما .

هذا النوع من العلم ، علم تقرير العقائد ، وبيان ما جاء فى النبوات ، كان معروفا عند الأمم قبل الاسلام ، ففى كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده ، وكان البيان من أول وسائلهم الى ذلك ، لكنهم كانوا قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى ، وبناء آرائهم وعقائدهم على ما فى طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون ، بل كانت منازع العقول فى العلم ومضارب الدين فى الالزام بالعقائد ، وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفى نقيض ، وكثيرا ما صرح الدين على لسان رؤسائه : أنه عدو العقل ، نتائجه ومقدماته ، فكان جل ما فى علوم الكلام تأويل وتفسير وادهاش بالمعجزات ، أو الهاء بالخيالات ، يعلم ذلك من له المام بأحوال الأمم قبل البعثة الاسلامية .

***

جاء القرآن فانتهج بالدين منهجا لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة ، منهجا يمكن لأهل الزمن الذى انزل فيه ، ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه ، فترك الاستدلال على نبوة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة ، وحصر الدليل فى حال النبى ، مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ، ولو فى مثل أقصر سورة منه ، وتناول من مقام الألوهية ما أذن الله لنا وما أوجب علينا أن نعلم .

لكن لم يطلب التسليم به لمجرد انه جاء بحكايته ، ادعى وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين ، وكر عليها بالحجة ،

وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الأحكام والاتقان على انظار العقول ، وطالبها بالامعان فيها ؛ لتصل بذلك الى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا اليه ؛ حتى انه في سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر أن للخليقة سنة لا تغير وقاعدة لا تتبدل ، فقال :

(سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا)[1] . وصرح : (إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)[2] ، واعتضد بالدليل حتى فى باب الأدب ، فقال : (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)[3] .

وتآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس ، على لسان نبى مرسل ، بتصريح لا يقبل التأويل ، وتقرر بين المسلمين كافة ــ الا من لا ثقة بعقله ولا بدينه ــ ان من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به الا من طريق العقل ، كالعلم بوجود الله ، وبقدرته على ارسال الرسل ، وعلمه بما يوحى به اليهم ، وارادته لاختصاصهم برسالته ، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة ، وكالتصديق بالرسالة نفسها .

---

(١) الفتح : ٢٣ .
(٢) الرعد : ١١ .
(٣) فصلت : ٣٤ .

كما أجمعوا على أن الدين أن جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل .

★

جاء القرآن يصف الله بصفات ، وان كانت أقرب الى التنزيه مما وصف به في مخاطبات الأجيال السابقة ، فمن صفات البشر ما يشاركها في الاسم ، أو في الجنس ، كالقدرة ، والاختيار ، والسمع ، والبصر ، وعزا اليه امورا يوجد ما يشبهها في الانسان كالاستواء على العرش ، وكالوجه واليدين ، ثم أفاض في القضاء السابق ، وفي الاختيار الممنوح للانسان ، وجادل الغالين من أهل المذهبين . ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ، ووكل الأمر في الثواب والعقاب الى مشيئة الله ، وأمثال ذلك مما لا حاجة الى بيانه في هذه المقدمة .

فاعتبار حكم العقل مع ورود أمثال هذه المتشابهات في النقل فسح مجالا للناظرين ، خصوصا ودعوة الدين الى الفكر في المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطه بشرط ، للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد الى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلو في التجريد ولا دنو في التحديد (١) .

---

(١) التجريد هنا يراد به الذهاب في تنزيه الله عن مشابهة الحوادث ، وعن الاتصاف بالصفات الزائدة على الذات ، الى الحد الذى يصبح فيه تصور الذات الالهية كفكرة مجردة عن الصفات والتحديدات ... ونحن نجد هذا التجريد عند المعتزلة وكل من وافقهم في التنزيه ، وبالذات عند الفلاسفة الالهيين .. فابن رشد مثلا يتصور الذات الالهية عقلا للعالم ، وعلما محضا ونظاما هو أشبه بالقوانين التى تحكم الوجود وتحفظه وتهيمن عليه .. انظر تصوره للذات الالهية في دراستنا « المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد » طبعة دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٧١ م . أما التحديد فاننا نجده بدرجات متفاوتة عند المشبهة والمجسمة وبعض القائلين بالحلول والاتحاد .

مضى زمن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وهو المرجع فى الحيرة والسراج فى ظلمات الشبهة، وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر فى مدافعة الأعداء ، وجمع كلمة الأولياء ، ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم يبتلونهـــا (١) بالبحث فى مبانى عقائدهم . وما كان من اختلاف قليل رد اليهما ، وقضى الأمر فيه بحكمهما ، بعــد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين ، ان كانت حاجة الى الاستشارة ، واغلب الخلاف كان فى فروع الأحكام لا فى أصول العقــائد ، ثم كان الناس فى الزمنين يفهمون اشارات الكتاب ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيمــا يوهم التشبيه . ويرون أن له معنى غير ما يفهمه ظاهر اللفظ .

كان الأمر على ذلك الى أن حدث ما حدث فى عهد الخليفة الثالث ، وافضى الى قتله ، هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الاسلام بأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التى استقاموا عليها ، وبقى القرآن قائما على صراطه (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (٢) ، وفتح للناس باب لتعدى الحدود التى حدها الدين ، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعى ، واشعر الأمر قلوب العامة ان شــهوات تلاعبت بالعقول فى أنفس من لم يملك الايمان قلوبهم ، وغلب الغضب على كثير من الغالين فى دينهم ، وتغلب هؤلاء واولئك على أهل الأصالة منهم فقضيت أمور على غير ما يحبون .

وكان من العاملين فى تلك الفتنة عبد الله بن سبأ ، يهودى أسلم وغلى فى حب على كرم الله وجهه ، حتى زعم

---

(١) يمتحنونها ويمحصونها .

(٢) الحجر : ٩

ان الله حل فيه ، وأخذ يدعو الى انه الأحق بالخلافة ؛ وطمن على عثمان ، فنفاه الى مصر ، فوجد فيها أعوانا على فتنته ، الى ان كان ما كان مما ذكرنا ، ثم ظهر بمذهبه في عهد على فنفاه الى المدائن ، وكان رايه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده (١) .

توالت الأحداث بعد ذلك ، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا ، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان الى الامويين ، غير ان بناء الجماعة قد انصدع ، وانفصمت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة ، واخذ الأحزاب في تأييد آرائهم ، كل ينصر رايه على رأى خصمه بالقول والعمل ، وكانت نشأة الاختراع في الرواية والتأويل ، وغلا كل قبيل ، فافترق الناس الى شيعة وخوارج ومعتزلين ، وغلا الخوارج في عهد مروان الأول (٢) فكفروا من عداهم ، ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية ، وتكفيرهم لمن خالفهم زمنا طويلا الى أن تضعضع أمرهم على يد المهلب بن أبى صفرة (٣) ، وانتشرت فارتهم في بلاد المغرب فأشعلوا فيها الفتن ،

---

(١) من الباحثين من يشكك في وجود شخصية عبدالله بن سبأ أصلا ، أو على الاقل يرى ان الناس قد اتخذوا منها مشجبا يعلقون عليه الاخطاء حتى لاتلحق الشبهات بشخصيات عزيزة على القلوب من صحابة رسول الله ، وحتى لا ترد المسببات الى أسبابها الحقيقية ، تلك الاسباب التي أثمرت أحداث عهد عثمان بن عفان · أنظر في ذلك د· طه حسين « الفتنة الكبرى » ج ١ ، ٢ · طبعة دار المعارف · القاهرة ·

(٢) هو مروان بن الحكم الاموى ، حكم بعد معاوية الثاني (٦٨٣-٦٨٥ م)

(٣) من قواد الحجاج بن يوسف الثقفي ، تمكن من هزيمة الخوارج الازارقة بقيادة قطرى بن الفجاءة الذين كانوا قد امتلكوا « كرمان » وكانت الموقعة الفاصلة سنة ٦٩٨ م او سنة ٦٩٩ م ·

وبقيت منهم بقية الى اليوم فى أطراف افريقيا وناحية من جزيرة العرب .

وغلا بعض الشيعة فرفعوا عليا أو بعض ذريته الى مقام الألوهية او ما يقرب منه ، وتبع ذلك خلاف فى كثير من العقائد .

غير ان شيئا من ذلك لم يقف فى سبيل الدعوة الاسلامية، ولم يحجب ضياء القرآن عن الأطراف المتنائية عن مثار النزاع ، وكان الناس يدخلون فيه افواجا من الفرس والسوريين ومن جاورهم ، والمصريين والافريقيين ومن يليهم ، واستراح جمهور عظيم من العمل فى الدفاع عن سلطان الاسلام ، وآن لهم أن يشتغلوا فى اصول العقائد والاحكام بما هداهم اليه سير القرآن اشتغالا يحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ولا يغض فيه من نظر الفكر ، ووجد من أهل الاخلاص من انتدب نفسه للنظر فى العلم والقيام بفريضة التعليم . ومن أشهرهم الحسن البصرى (١) ، فكان له مجلس للتعليم والافادة فى البصرة يجتمع اليه الطالبون من كل صوب وتمتحن فيه المسائل من كل نوع .

وكان قد التحف بالاسلام ولم يتبطنه اناس من كل ملة ، دخلوه حاملين لما كان عندهم ، راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه ، فثارت الشبهات بعد ما هبت على

---

(١) هو الحسن بن أبى الحسن (٢١ ــ ١١٠ هـ ٦٤١ ــ ٧٢٨ م) واسم ابيه يسار ، وكان أبوه من سبى « ميسان » وهى « كورة » بين « البصرة » و « واسط » ، وكانت أمه مولاه لام سلمة زوج الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت تعطيه ثديها فى غياب أمه وهو رضيع ، انظر (تهذيب التهذيب) بن حجر العسقلانى جـ ٢ ص ٢٧٠ طبعة حيدر أباد بالهند سنه ١٣٢٥ هـ .

الناس أعاصير الفتن ، وأعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من اطلاق العنان للفكر ، وشارك الدخلاء من حق لهم السبق ، من العرفاء ، وبدت رؤوس المشاقين تعلو بين المسلمين .

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسالة الاختيار واستقلال الانسان بارادته وأفعاله الاختيارية ، ومسألة من ارتكب الكبيرة ، ولم يتب : اختلف فيها واصل بن عطاء (١) مع استاذه الحسن البصرى ، واعتزله ، يعلم أصولا لم يكن أخذها عنه ، غير ان كثيرا من السلف ومنهم الحسن ـ على قول .. كان على رأى أن العبد مختار فى أعماله الصادرة عن علمه وارادته (٢) ، وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا الى أن الانسان فى عمله الارادى كأغصان الشجرة فى حركاتها الاضطرارية. كل ذلك وأرباب السلطان من بنى مروان لا يحفلون بالأمر ، ولا يعنون برد الناس الى أصل ، وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل الى ما شاء .

ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين ، بل امتد الى اثبات صفات المعانى للذات الالهية أو نفيها

---

(١) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء (٨٠ ـ ١٣١ هـ ٦٩٩ ـ ٧٤٩ م) الملقب بالغزال ، من الموالى ، ولد بالمدينة ، ثم ذهب الى البصرة ، أخذ القول بحرية الانسان واختياره عن معبد الجهنى ، وأخذ القول بالتنزيه عن جهم بن صفوان ، وهو أول من تبلورت على يديه حركة المعتزلة التى ورثت تراث القائلين بالعدل والتوحيد . أنظر : المنية والامل لابن المرتضى ص ١٧ ـ ٢٠ طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ .

(٢) تشهد بذلك رسالة له فى « القدر » بعث بها الى عبد الملك بن مروان . ولقد قمنا بتحقيقها ونشرها ضمن الجزء الاول من « رسائل العدل والتوحيد » طبعة « دار الهلال » فى القاهرة ، وفى الخلاف حول موقفه من هذه القضية أنظر « تهذيب التهذيب » جـ ٢ ص ٢٧٠ و « المعارف » لابن قتيبة ص ٤٤٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

منها ، والى تقدير سلطة العقل فى معرفة الاحكام الدينية حتى ما كان منها فروعا وعبادات (غلوا فى تأييد خطة القرآن) ، أو تخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى ، على ما سبق بيانه ، ثم غالى آخرون ، وهم الأقلون ، فمحوها بالمرة ، وخالفوا فى ذلك طريقة الكتاب ، عنادا للأولين (١) ، وكانت الآراء فى الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء فى العقائد كأنها مبنى من مباني الاعتقاد الاسلامى .

تفرقت السبل بأتباع « واصل » ، وتناولوا من كتب اليونان ما لاق بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعا الى أوليات العقل وما كان سرابا فى نظر الوهم ، فخلطوا بمعارف الدين ما لا ينطبق حتى على أصل من أصول النظر ، ولجوا فى ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات ، أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة ، فغاب رأيهم ، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب ، فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلون معتصمين بقوة اليقين وان لم يكن لهم عضد من الحاكمين .

عرف الأولون من العباسيين ما كان من الفرس فى اقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين ، واعتمدوا على طلب الأنصار فيهم ، وأعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم ، فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين

(١) الاشارة الى « الظاهرية » ومدرسة « أهل الحديث » الذين أنكروا التأويل واعمال العقل فيما وراء ظاهر النصوص .

فى شىء . وكان فيهم « المانوية (١) » و « اليزدية (٢) » ومن لا دين له وغير أولئك من الفرق الفارسية ، فأخذوا ينفثون من افكارهم ، ويشيرون بحالهم وبمقالهم الى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم ، فظهر الالحاد وتطلعت رؤوس الزندقة حتى صدر أمر « المنصور (٣) » بوضع كتب لكشف شبهاتهم وابطال مزاعمهم .

فيما حوالى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتا لم يتكامل نموه ، وبناء لم يتشامخ علوه ، وبدأ كما انتهى مشوبا بمبادىء النظر فى الكائنات جريا على ما سنه القرآن من ذلك .

حدثت فتنة القول بخلق القرآن أو ازليته (٤) ، وانتصر للأولى جمع من خلفاء العباسيين ، وأمسك عن القول ، أو صرح بالازلية عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة ، واهين فى ذلك رجال من أهل العلم والتقوى ، وسفكت فيه دماء بغير حق ، وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين . على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل وما توسط أو غلا من الاستمساك بظاهر الشرع ، والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية

---

(١) ويقال لهم الثنوية ، وهم القائلون بالنور والظلمة ، وبقدمهما ، واستقلالهما ونبيهم « مانى » الذى ظهر فى عهد « سابورين أردشير بن بابك » . وهم فرق متعددة . انظر : القاضى عبد الجبار « المغنى فى أبواب التوحيد والعدل » ج ٥ ص ٩ ـ ٧٠ .

(٣) لعلها : المزدقية ، وهى فرقة من فرق الثنوية . انظر المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحات .

(٣) المؤسس الحقيقى للدولة العباسية حكم من سنة ٧٥٤ م حتى سنة ٧٧٥ م .

(٤) كان ذلك في عهد المأمون العباسى سنة ٢١٨ هـ .

واجبة الاتباع ، ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده ، وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض التروض (١) عليه .

وكان وراء هؤلاء قوم من اهل الحلول او الدهريين ، طلبوا أن يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحاقهم (٢) بالاسلام ، وافرطوا فى التأويل ، وحولوا كل عمل ظاهر الى سر باطن ، وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب بعد الخطأ عن الصواب ، وعرفوا بالباطنية أو الاسماعيلية ، ولهم أسماء أخر تعرف فى التاريخ ، فكانت مذاهبهم غائلة الدين وزلزال اليقين ، وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة .

مع اتفاق السلف وخصومهم فى مقارعة هؤلاء الزنادقة واشياعهم كان أمر الخلاف بينهم جللا ، وكانت الأيام بينهم دولا ، ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض واستفادة كل فريق من صاحبه الى أن جاء الشيخ أبو الحسن الأشعرى (٣) فى أوائل القرن الرابع ، وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر ، وارتاب فى أمره الأولون ، وطعن كثير منهم على عقيدته ، وكفره الحنابلة واستباحوا دمه ، ونصره جماعة من اكابر العلماء ،

---

(١) بمعنى ترويض النفس وتعويدها وتطويعها عليه .

(٢) يمكن أن تقرأ التحاقهم ، بالقاف ، والتحافهم ، بالفاء ، على معنى انهم لم يؤمنوا به كما يجب أن يكون الايمان .

(٣) (٢٦٠ ـ ٣٢٤ هـ ٨٧٣ ـ ٩٣٥ م) ، ولد بالبصرة ، وتوفى ببغداد ، وكان شافعيا فى المذهب الفقهى ، وفى الكلام كان معتزليا ثم خرج على المعتزلة ومن أهم كتبه « الابانة عن أصول الديانة » و « مقالات الاسلاميين » . انظر دائرة المعارف الإسلامية .

كامام الحرمين (١) ، والاسفرايينى (٢) ، وأبى بكر الباقلانى (٣) وغيرهم ، وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة ، فانهزم من بين أيدى هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان : قوة بمذهب أهل السنة والجماعة ، فانهزم من بين أيدى هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان : قوةالواقفين عند الظواهر ، وقوة الغالين فى الجرى خلف ما تزينه الخواطر ، ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد قرنين الا فئات قليلة فى أطراف البلاد الاسلامية .

غير ان الناصرين لمذهب الأشعرى ، بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون ، أوجبوا على المعتقد ان يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدى اليه من عقائد الايمان ذهابا منهم الى أن عدم الدليل يؤدى الى عدم المدلول .

ومضى الأمر على ذلك الى أن جاء الامام الغزالى (٤) والامام الرازى (٥) ومن اخذ مأخذهم ، فخالفوهم فى ذلك ، وقرروا أن دليلا واحدا أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو اقوى منها فلا وجه للحجر فى الاستدلال .

---

(١) هو أبو المعالى عبد الملك بن ابى محمد عبد الله بن يوسف الجوينى ، الفقيه الشافعى ، وهو أستاذ الغزالى ، ونسبته الى « جوين » احدى نواحى « نيسابور » ، توفى سنة ٤٧٨ هـ .

(٢) المتوفى سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) .

(٣) المتوفى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م)

(٤) (١٠٥٩ — ١١١٢ م) اشهر من أن يعرف .

(٥) المراد فخرالدين الرازى ، وهو أبوالفضل محمد بن عمر بن الحسين ، المعروف بابن الخطيب ، ولد بمدينة الرى سنة ٥٤٤ هـ أو سنة ٥٤٣ هـ ، وتوفى سنة ٦٠٦ هـ .

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ، ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة ، الا تحصيل العلم والوفاء بمـا تندفع اليه رغبة العقل من كشف مجهـــول أو استكناه معقول ، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شــاءوا ، وكان الجمهور من اهل الدين يكنفهم بحمـــــايته ويدع لهم من اطلاق الارادة ما يتمتعون به فى تحصيل لذة عقولهم ، وافادة الصناعة، وتقوية أركان النظام البشرى بما يكشفون من مساتير الأسرار المكنونة فى ضمائر الكون ، مما أباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا فى قوله : (خلق لكم ما فى الأرض جميعـا) (١) ، اذ لم يستثن من ذلك ظـــاهرا ولا خفيا ، وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقبات فى سبيلهم الى ما هدوا اليه ، بعدما رفع القرآن من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهى اليه أمر الســـــعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع ، وبعد ما صح من قوله عليه السلام : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » وبعد ما سن لنا فى غزوة بدر من سنة الأخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء (٢) .

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم .

الأول : الاعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان ، خصوصا عن ارســطو وأفــلاطون ، ووجـد أن اللذة فى تقليدها لبادىء الأمر .

---

(١) البقرة : ٢٩ .

(٢) الاشارة الى أخذ الرسول برأى بعض الصـــحابة فى مكان النزول ببدر ، وعدوله عن رايه هو فى المنزل الذى كان قد اختاره للنزول .

والثاني : روح الوقت (١) ، وهــو أشأم الأمرين ، زجوا بأنفسهم فى المنازعات التى كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين ، واصطدموا بعلومهم فى قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة ، فمال حماة العقائد عليهم ، وجاء الغزالى (٢) ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد فى كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات وما يتصل بها من الأمور العــامة او احكام الجــواهر والأعراض ومذاهبهم فى المــادة وتركيب الأجسـاد وجميع ما ظنه المشتغلون بالـكلام يمس شيئا من مبانى الدين، واشتدوا فى نقده ، وبالغ المتأخرون منهم فى تاثرهم حتى كاد يصل السير الى ما وراء الاعتدال . فسقطت منزلتهم من النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخــاصة ، وذهب الزمان بمــا كان ينتظر العالم الاســلامى من سعيهم .

هذا هو السبب فى خلط مســائل الـكلام بمذاهب الفلسفة فى كتب المتــــاخرين ،، كما تراه فى كتب البيضاوى (٣) والعضد (٤) وغيرهم وجمع علوم نظـرية شتى وجعلها جميعا علما واحدا ، والذهاب بمقدماته ومباحثه الى ما هو اقرب الى التقليد من النظر فوقف العلم عن التقدم .

---

(١) أى روح العصر وطابعه .

(٢) الاشارة هنا الى كتابه « تهافت الفلاسفة » .

(٣) هو أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازى ، المتوفى سنة ٧٩١ هـ .

(٤) هو العضد الايجى ، صاحب الموسوعة الشهيرة « المواقف » ، توفى سنة ٧٥٦ هـ « سنة ١٣٥٥ م » .

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة ، وتغلب الجهال على الأمر وفتكوا بما بقى من اثر العلم النظرى النابع من عيون الدين الاسلامى ، فانحرفت الطريق بسالكيها ، ولم يعد بين الناظرين فى كتب السابقين الا تحاور فى الألفاظ وتناظر فى الأساليب ، على ان ذلك فى قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور .

ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم ، فجاء قوم ظنوا فى أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم ، فوضعوا ما لم يعد للاسلام قبل باحتماله ، غير انهم وجدوا من نقص المعارف انصارا ، ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا ، فشردوا بالعقول عن مواطنها ، وتحكموا فى التضليل والتكفير ، وغلوا فى ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم فى دعوى العداوة بين العلم والدين ، وقالوا لما تصف السنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام ، وهذا كفر وهذا اسلام ، والدين من وراء ما يتوهمون ، والله ، جل شأنه ، فوق ما يظنون وما يصفون . ولكن ماذا أصاب العامة فى عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم ، وبعد طول الخبط وكثرة الخلط ؟؟ شر عظيم وخطب عميم .

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف اسس على قواعد من الكتاب المبين ، وكيف عبثت به فى نهاية امره أيدى المفرقين ، حتى خرجوا به عن قصده ، وبعدوا به عن حده ، والذى علينا اعتقاده ان الدين الاسلامى دين توحيد فى العقائد لا دين تفريق فى القواعد ، العقل من اشد أعوانه ، والنقل من اقوى أركانه ، وما وراء

ذلك فنزغات شياطين أو شــــهوات سلاطين ، والقرآن شاهد على كل بعمله ، قاض عليه فى صوابه وخطله .

★

الغاية من هذا العلم : القيام بفرض مجمع عليه ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته ، الواجب ثبوتها له ، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصــديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتمــــادا على الدليل ، لا استرسالا مع التقليد ، حسبما أرشدنا اليه الـكتاب ، فقد امر بالنظر واستعمال العقل فيمــــا بين أيدينا من ظواهر الكون ، وما يمكن النفوذ اليه من دقائقه ، تحصيلا لليقين بما هدانا اليه ، ونهانا عن التقليد بما حكى عن احوال الأمم فى الأخذ بما عليه آباؤهم ، وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وامحاء وجودهم الملى ، وحق ما قال ، فان التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل ، وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار فهو مضلة يعــــذر فيها الحيوان ولا تجمل بحـــــال الانسان .

اقسام المعلوم

يقسمون المعلوم الى ثلاثة أقسام :

ممكن لذاته .

وواجب لذاته .

ومستحيل لذاته .

ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هى ، اما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هى ، والممكن ما لا وجود له ولا عدم منذاته ، وانما يوجد

الوجود ويعدم لعـــدم سبب وجوده ، وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره ، واطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز ، فان المعلوم حقيقة لابد أن يكون له كون فى الواقع ينطبق عليه العلم ، والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه فى أحكامه ، وانما المراد ما يمكن الحكم عليه وان فى صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها الى الحكاية عنه .

حكم المستحيل

وحكم المستحيل لذاته : أن لا يطرأ عليه وجود ، فان العدم من لوازم ماهيته من حيث هى ، فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية من حيث هى عنها ، وهو يؤدى الى سلب المـاهية عن نفسها بالبـــداهة ، فالمستحيل لا يوجد ، فهـو ليس بموجود قطعا ، بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة كما أشرنا اليه ، فهو ليس بموجود حتى ولا فى الذهن .

أحكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته : ان لا يوجد الا بسبب وأن لا ينعدم الا بسبب ، وذلك لأنه لا واحد من الأمرين له لذاته ، فنسبتهما الى ذاته على السواء ، فان ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة .

ومن أحكامه انه ان وجد يكون حادثا لأنه قد ثبت انه لا يوجد الا بسبب ، فاما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده ، والأول باطل ، والا لزم تقدم المحتاج على ما اليه الحاجة ، وهو ابطـــال لمعنى

الحاجة ، وقد سبق الاستدلال على ثبوتها ، فيؤدي الى خلاف المفــروض ، والثاني كذلك ، والالزام يساويهما في رتبة الوجود فيكون الحكم على أحدهمـــا بأنه اثر والثاني مؤثر ترجيحا بلا مرجح ، وهو ممـا لا يسوغه العقل ، على أن علية أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح ، وهو باطل بالبــداهة ، فتعين الثالث ، وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه ، فيكون مسبوقا بالعدم في مرتبة وجــود السبب ، فيــكون حادثا ، اذ الحادث ما سبق وجوده بالعدم ، فكل ممكن حادث ان وجد .

الممكن لا يحتاج في عدمه الى سبب وجودي ، لأن العدم سلب ، والسلب لا يحتـــاج الى ايجاد بداهة ، فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه لعدم ما كان سببا في بقائه ، أما في وجوده فيحتاج الى سبب وجودي ، لأن العدم لا يكون مصدرا للوجود ، فالموجود ان حدث فانما يكون حدوثه بايجاد ، وذلك كله بديهي .

كما يحتاج الممكن للسبب في وجوده ابتداء اليه في البقاء ، لما بينـــا ان ذات الممكن لا تقتضي الوجود ، ولا يرجح لها الوجود عن العدم الا للسبب الخـــارجي الوجودي ، فذلك لازم من لوازم ماهية الامكان لا يفارقها من حيث هي ، فلا يكون للممكن حالة يقتضي فيهـــا الوجود لذاته ، فيـكون في جميع أحواله محتاجا الى مرجح للوجود عن العدم ، لا فرق بين الابتداء والبقاء .

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الايجـاد ، ومعطي الوجـود ، وهو الذي يعبر عنه بالموجـــد ، وبالعلة الموجدة ، وبالعلة الفاعلة ، وبالفاعل الحقيقي ، ونحو ذلك من العبارات التي تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها ،

وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط أو المعـــد الذى يهيىء الممكن لقبول الايجاد من موجده ، وهو بهذا المعنى قد يحتاج اليه فى الابتداء ويستغنى عنه فى البقاء ، وقد تكون الحاجة الى وجوده ثم عدمه ، ومن هذا القبيل وجود البناء ، فانه شرط فى وجود البيت ، وقد يموت البناء ويبقى بناؤه ، وليس البناء واهب الوجود للبيت ، وانما حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار ارادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به ، وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شيء وبين استفادته الوجود من شيء، فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم، كما فى توقف الخطوة الثانية على الأولى ، فان الأولى ، ليست واهبة الوجـــود للثانية ، والا وجب وجودها معها مع ان الثانية لا توجد الا اذا انعدمت الأولى ، أما استفادة الوجود فتقضى سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه وأن يكون وجود المستفيد مستمدا من وجود الواهب لا يقوم الا به فلا يستقل بنفسه دونه فى حال من الأحوال .

الممكن موجود قطعا

نرى أشياء توجد بعد ان لم تكن ، وأخرى تنعدم بعد ان كانت ، كأشخاص النباتات والحيوانات ، فهذه الـكائنات اما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة ، لا سبيل الى الأول لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود، ولا الى الثانى لأن الواجب له الوجود من ذاته وما بالذات لا يزول ، فلا يطرأ عليه العدم ولا يسبقه ، كما سيجىء فى أحكام الواجب : فهى ممكنة ، فالممكن موجود قطعا .

وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجـودة ممكنة بداهة ، وكل ممكن محتاج الى سبب يعطيـــــه الوجود ، فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها الى موجد لها ، فاما أن يكون عينها ، وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه ، واما أن يكون جزاها ، وهو محـــــال لاستلزامه ان يكون الشيء سببا لنفسه ولما سبقه ان لم يكن الأول ولنفسه فقط ان فرض أول وبطلانه ظاهر ، فوجب أن يـكون السبب وراء جملة الممكنات ، والموجود الذى ليس بممكن هو الواجب ، اذ ليس وراء المـــــكن الا المستحيل والواجب ، والمستحيل لا يوجـــد ، فيبقى الواجب ، فثبت ان للممكنات الموجودة موجدا واجب الوجود .

وأيضا الممكنات ، سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود ، فذلك الوجود اما أن يكون مصدره ذات الامكان وماهيات الممكنات ، وهو باطل لما سبق فى أحكام الممكن من أنه لا شيء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود ، فتعين أن يـكون مصـــــدره ســـواها وهو الواجب بالضرورة .

أحكام الواجب

صفات البرهان التى يجب الاعتقاد بها
القدم .. والبقاء .. ونفى التركيب

من أحكام الواجب : أن يكون قديما أزليا ، لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثا ، والحادث ما سبق وجوده بالعدم، فيكون وجوده مسبوقا بعدم ، وكل ما سبق بالعدم يحتاج الى علة تعطيه الوجود ، والا لزم رجحان المرجوح بلا سبب ، وهو محال ، فلو لم يكن الواجب قديما لكان محتاجا فى وجوده الى موجد غيره وقد سبق ان الواجب ما وجوده لذاته ، فلا يكون ما فرض واجبا ، وهو تناقض محال .

ومن أحكامه ان لا يطرأ عليه عدم ، والا لزم سلب ما هو للذات عنها ، وهو يعود سلب الشىء عن نفسه ، وهو محال بالبداهة .

من أحكامه أن لا يكون مركبا ، اذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من اجزائه على وجود جملته التى هى ذاته ، وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة ، فيكون وجوده جملة محتاجا الى وجود غيره ، وقد سبق ان الواجب ما كان وجوده لذاته ، ولأنه لو تركب لكان الحكم له

بالوجود موقوفا على الحكم بوجود أجزائه ، وقد قلنا أنه له لذاته من حيث هي ذاته ، ولأنه لا مرجح لأن يـكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه ، بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هي الواجبة دونه .

نفي التركيب في الواجب شامل لمـا يسمونه حقيقة عقلية أو خارجية ، فلا يمـكن للعقل أن يحاكي ذات الواجب بمركب ، فان الأجزاء العقلية لابد لها من منشأ انتزاع في الخارج ، فلو تركبت الحقيقة العقلية لـكانت الحقيقة مركبة في الخارج والا كانت ما فرض حقيقة عقلية اعتبارا كاذب الصدق لا حقيقة .

كما لا يكون الواجب مركبا لا يكون قابلا للقسمة في احد الامتدادات الثلاث ، أي لا يكون له امتداد ، لأنه لو قبل القسمة لعاد بها الى غير وجوده الأول ، وصار الى وجودات متعددة ، وهي وجودات الأجزاء الحـاصلة من القسمة ، فيكون ذلك قبولا للعدم أو تركبا وكلاهما محال كما سبق .

الحيـــاة

معنى الوجود وان كان بديهيا عند العقل لكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار ، وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة .

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة في المعنى السابق ذكره ، والا كان الوجود لمرتبة سواها ، وقـد فرض لها . ما يتجلى للنفس من مثل الوجود لا ينحصر ، وأكمل مثال في أي مراتبه ما كان مقرونا بالنظام والكون

على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش ، فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودا مستمرا وان فى النوع ، كان أدل على كمـال المعنى الوجودى فى صـــاحب المثال .

فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدرا لكل نظام كان ذلك عنوانا على انها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها .

وجود الواجب هو مصدر كل وجـود مكمن كمـــا قلنا ، وظهر بالبرهان القاطع ، فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها ، فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا .

وكل ما تصوره العقل كما لا فى الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهـور ، وأمكن ان يكون له ، وجب أن يثبت له ، وكونه مصدرا للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا ، فيجب أن يكون ذلك ثابتا له ، فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التى تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له .

فمما يجب أن يكون له صفة الحياة ، وهى صفة تستتبع العلم والارادة ، وذلك ان الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة ، فان الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام ، وناموس الحكمة ، وهى فى أى مراتبها مبدأ الظهـور والاستقرار فى تلك المرتبة ، فهى كمال وجودى ، ويمكن أن يتصف بها الواجب وكل كمـــال وجودى يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له ، فواجب الوجود حى ، وان باينت حياته حياة الممكنات ، فان ما هو كمـــال للوجود انما هو مبدأ العلم والارادة . ولو لم تثبت له

هذه الصفة لكان في الممكنات ما هو أكمل منه وجودا ، وقد تقدم انه اعلى الموجودات وأكملها فيه .

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه ، فكيف لو كان فاقدا للحياة يعطيها ؟ فالحياة له كما أنه مصدرها .

العلم

ومما يجب له : صفة العلم ، ويراد به ما به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة ، أى مصدر ذلك الانكشاف منه ، لأن العلم من الصفات الوجودية التى تعد كمالا فى الوجود ، ويمكن أن تكون للواجب ، وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له ، فواجب الوجود عالم .

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال فى الموجودات الممكنة ، ومن الممكنات من هو عالم ، فلو لم يكن الواجب عالما لكان فى الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب ، وهو محال كما قدمنا .

ثم هو واهب العلم فى عالم الأمكان ، ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده .

علم الواجب من لوازم وجوده ، كما ترى ، فيعلو على العلوم علو وجوده عن الموجودات ، فلا يتصور فى العلوم ما هو أعلى منه ، فيكون محيطا بكل ما يمكن علمه ، والا تصور العقل علما اشمل ، وهو انما يكون لوجود اكمل ، وهو محال .

ما هو لازم لوجود الواجب يفنى بفنائه ويبقى ببقائه ،

وعلم الواجب من لوازم وجوده ، فلا يفتقر الى شيء ما وراء ذاته ، فهو ازلى ، أبدى ، غنى عن الآلات ، وجولات الفكر ، وافاعيل النظر ، فيخالف علوم الممكنات بالضرورة .

ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم ، والا لم يكن علما .

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده فى نظام الممكنات من الاحكام والاتقان ووضع كل شيء فى موضعه ، وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه فى وجوده وبقائه ، وذلك ظاهر لجليى النظر مما يشاهد فى الأعيان ، كبيرها وصغيرها ، علويها وسفليها ، هذه الروابط بين الكواكب ، والنسب الثابتة بينها ، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذى قدر لها ، والزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره ، وغير ذلك مما فصل فى علوم الهيئة الفلكية ، كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره .

اعتبر بما تراه فى جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها ، قواها ، وايتائها ما تحتاج اليه فى تقويم وجودها من الآلات والأعضاء ، ووضع ذلك فى مواضعه من ابدانها ، وايداع غير الحساس منها ، كالنبات قوة الميل الى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما لا يلائمه ، فترى بذرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ فى أرض واحدة ، ثم تسقى بماء واحد ، وتنمى بعناية واحدة ، ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المر الزعاف وهذه تتناول ما يغذو حلو المذاق . وارشاد الحساس منها الى استعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء ، وسوق

كلّ قوة من قواه الى ما قدرت له ، فهو الذى يعلم حال الجنين وهو نطفة أو علقـة ، ويعلم بحاجته متى تكامل خلقه وانشأه نشأة الحى المستقل فى عمله ، الى الأيدى والأرجل والأعين والمشام والآذان وبقية المشاعر الباطنة ، يستعمل فيما يقيم وجوده ويقيه من العوادى عليه ، وحاجته الى المعدة والقلب والـكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التى لا غنى عنها فى النمو والبقاء الى الأجل المحدود للشخص أو للنوع ، وهو الذى يعلم حالة الجروة من الـكلاب ، مثلا ، وانها متى كبرت تلد الجراء متعددة فيمنحها أطباء (١) متكثرة ، وغير ذلك مما لا يستطاع احصاؤه ، وقد فصـل الـكثير منه فى كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التـاريخ الطبيعى وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه ، على أن الباحثين فى كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما كشفوا من الأسرار لم يزالوا فى أول البحث .

هذا الصـنيع الذى انمـا تتفاضل العقول فى فهم اسراره ، والوقوف على دقائق حكمه ، الا يدل على ان مصدره هو العالم بكل شىء ، الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ؟ ، هل يمكن لمجرد الاتفـاق المسمى بالصدفة أن يكون ينبوعا لهذا النظام ، وواضعا لتلك القواعد التى يقوم عليها وجود الأكوان ، عظيمها وحقيرها؟ كلا . . بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم .

---

(١) مفردها طبى ، بضم الطاء وكسرها مع سـكون الباء ، وهو حلمة الوضع ، المراد هنا كثرة حلمات الكلبة كى ترضع الجراء الكثيرة في وقت واحد .

الارادة

مما يجب لواجب الوجـــود : الارادة ، وهى صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة . بعد ما ثبت ان واهب وجود الممكنات هو الواجب ، وأنه عالم ، وان ما يوجد من الممكن لابد أن يكون على وفق علمه ، ثبت بالضرورة أنه مريد ، لأنه انما يفعل على حسب علمه . ثم ان كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة ، وله وقت ومكان محدودان ، وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة ، وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ، ولا معنى للارادة الا هذا .

أما ما يعرف من معنى الارادة ، وهو ما به يصح للفاعل ان ينفذ ما قصده ، وأن يرجع عنه ، فذلك محال فى جانب الواجب ، فان هذا المعنى من الهموم الكونية ، والعزائم القــابلة للفسخ ، وهى من توابع النقص فى العلم ، فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك .

القـــدرة

ومما يجب له : القدرة ، وهى صفة بهـا الايجـــاد والاعدام . ولما كان الواجب هو مبـدع الـكائنات على مقتضى علمه وارادته ، فلا ريب يكون قادرا بالبداهة ، لأن فعل العالم المريد فيما علم وأراد انما يكون بسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة الا هذا السلطان .

الاختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار ، اذ لا معنى له الا اصدار الأمر بالقدرة على مقتضى العلم ، وعلى حكم الارادة فهو الفاعل المختار ليس من أفعاله ولا من تصرفه فى خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودى بدون شعور ولا ارادة ، وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف ، بحيث لو لم يراعه لتوجه عليه النقد ، فيأتيه تنزها عن اللائمة ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى انما تقررت له بحكم انه أثر الوجود الواجب الذى هو أكمل الوجودات وأرفعها ، فالكمال فى الكون انما هو تابع لكمال المكون ، واتقان الابداع انما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع ، وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والارادة المطلقة ، فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون (١)) ، وهذا هو معنى قولهم : أن أفعاله لا تعلل بالأغراض ، ولكنها تنزه عن العبث ، ويستحيل أن تخلو من الحكم ، وان خفى شىء من حكمتها عن انظارنا .

***

الوحـــدة

ومما يجب له : صفة الوحدة ، ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا . أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقـــدم بنفى التركيب فى ذاته ، خارجا وعقلا ، وأما الوحدة

---

(١) المؤمنون : ١١٥ .

فى الصفة ، أى أنه لا يســـاويه فى حياته الثابتة له موجود ، فلما بينا من ان الصفة تابعــة لمرتبة الوجــود وليس فى الموجودات ما يساوى واجب الوجود فى مرتبة الوجود ، فلا يســاويه فيمـــآ يتبع الوجود من الصفات ، واما الوحدة فى الوجود وفى الفعل ، ونعنى بها التفرد بوجوب الوجود ، وما يتبعه من ايجاد المكنات، فهى ثابتة ، لأنه لو تعدد واجب الوجود لـكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة ، والا لم يتحصل معنى التعدد ، وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة ، لأن الصفة انما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما ثبتت له بالبداهة ، فيختلف العلم والارادة باختلاف الذوات الواجبة اذ يكون لـكل واحدة منهـــا علم وارادة يباينان علم الأخرى وارادتها ، ويكون لـكل واحدة علم وارادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها .

هذا التخالف ذاتى ، لأن علم الواجب وارادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر فى الخارج ، فلا سبيل الى التغير والتبدل فيهما كما سبق . وقد قدمنا ان فعل الواجب انما يصدر عنه على حسب علمه وحكم ارادته ، فيكون فعل كل صادرا على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية ، فلو تعدد الواجبون لتخالفت افعالهم بتخـالف علومهم وارادتهم ، وهــو خــلاف يستحيل معه الوفاق ، وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الايجاد فى عامة المكنات ، فـكل له التصرف فى كل منهــا على حسب علمه وارادته ولا مرجح لنفاذ أحد القدرتين دون الأخرى ، فتتضارب افعالهم حسب التضارب فى علومهم وارادتهم ، فيفسد نظـام

الكون ، بل يستحيل أن يكون له نظام ، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات ، لأن كل ممكن لابد أن يتعلق به الايجاد على حسب العلوم والارادات المختلفة ، فيلزم ان يكون للشيء الواحد وجودات متعددة ، وهو محال ، فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، ولكن الفساد ممتنع بالبداهة ، فهو ، جل شأنه ، واحد في ذاته وصفاته ، لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله .

الصفات السمعية التي يجب الاعتقاد بها

ما قدمنا من الصفات التي يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هي ما أرشد اليه البرهان ، وجاءت به الشريعة الاسلامية ، وما تقدمها من الشرائع المقدسة ، لتأييده والدعوة الاسلامية بلسان نبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ولسان من سبقه من الأنبياء ، صلوات الله عليهم أجمعين .

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ، ولا يحيله العقل اذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ، ولكن لا يهتدى اليه النظر وحده ، ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعاً لما تقرره الشرع ، وتصديقاً لما اخبر به .

الكلام

فمن تلك الصفات : صفة الكلام ، فقد ورد ان الله كلم بعض أنبيائه ، ونطق القرآن بأنه كلام الله . فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لابد أن يكون شأنا من شئونه ، قديما بقدمه ، أما الكلام المسموع نفسه ،

المعبر عن ذلك الوصف القديم فلا خلاف في حدوثه ، ولا في أنه خلق من خلقه ، وخصص بالاسناد اليه لاختياره له سبحانه في الدلالة على ما أراد بلاغه لخلقه ، ولأنه صادر عن محض قدرته ، ظاهرا وباطنا ، بحيث لا مدخل لوجود آخر فيه بوجه من الوجوه سوى أن من جاء على لسانه مظهر لصدوره ، والقول بخلاف ذلك مصادرة للبداهة وتجرؤ على مقام القدم بنسبة التغير والتبدل اليه ، فان الآيات التى يقرؤها القارىء تحدث وتفنى بالبداهة كلما تليت .

والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالا وأضل اعتقادا من كل ملة جاء القرآن نفسه بتضليلها والدعوة الى مخالفتها ، وليس في القول بأن الله أوجد القرآن ، بدون دخل لكسب بشر في وجوده ، ما يمس شرف نسبته ، بل ذلك غاية ما دعا الدين الى اعتقاده ، فهو السنة ، وهو ما كان عليه النبى وأصحابه ، وكل ما خالفه فهو بدعة وضلالة .

أما ما نقل الينا من ذلك الخلاف الذى فرق الأمة وأحدث فيها الأحداث ، خصوصا في أوائل القرن الثالث من الهجرة ، واباء بعض الأئمة أن ينطق بأن القرآن مخلوق ، فقد كان منشؤه مجرد التحرج ، والمبالغة في التأدب من بعضهم ، والا فيجل مقام مثل الامام ابن حنبل عن أن يعتقد أن القرآن المقروء قديم وهو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكيفه بصوته (١) .

---

(١) اى أن الحروف المكتوبة ، والاصوات المسموعة والمقروءة من نعل الانسان الكاتب والقارىء ، أما المصدر الذى تعبر عنه هذه الحروف والاصوات ، والذى يعبر هو في ذات الوقت عن مراد الله قديم .. وكثيرون من الاشعرية يرون هذا الرأى ، أنظر في ذلك فتوى للعز بن عبد السلام في (طبقات الشافعية الكبرى) للسبكى جـ ٥ ص ٨٦ ، ٩٤ ، ٨٩ طبعة القاهرة الاولى .

البصر والسمع

ومما ثبت له بالنقل : صفة البصر، وهى ما به تنكشف المبصرات .

وصفة السمع ، وهى ما به تنكشف المسموعات . فهو السميع البصير ، لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة .

***

كلام فى الصفات اجمالا

ابتدىء الكلام فيما اقصد بذكر حديث أن لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه ، وهو قوله ، صلى الله عليه وسلم : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » .

اذا قدرنا عقل البشر قدره ، وجدنا غاية ما ينتهى اليه كماله انما هو الوصول الى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الادراك الانسانى حسا كان أو وجدانا أو تعقلا ، ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها ، وتحصيل كليات لأنواعها ، والاحاطة ببعض القواعد لعــــروض ما يعرض لها ، أما الوصول الى كنه حقيقة فمما لا تبلغه قوته ، لأن اكتناه المركبات انما هو باكتناه ما تركبت منه ، وذلك ينتهى الى البسيط الصرف ، وهو لا سبيل الى اكتناهه بالضرورة ، وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره ، خذ اظهر الأشياء وأجلاها ، كالضوء : قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة فصلوها فى علم خاص

به ، ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ولا أن يكتنه معنى الاضاءة نفسه ، وانما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان ، وعلى هذا القياس .

ثم ان الله لم يجعل للانسان حاجة تدعو الى اكتناه شيء من الكائنات ، وانما حاجته الى معرفة العوارض والخواص ، ولذة عقله ، ان كان سليما انما هي تحقيق نسبة تلك الخواص الى ما اختصت به ، وادراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب ، فالاشتغال بالاكتناه اضاعة للوقت ، وصرف للقوة الى غير ما سيقت اليه .

اشتغل الانسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء اليه ، وهي نفسه ، أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض أو جوهر ؟ هل هي قبل الجسم ؟ أو بعده ؟ هل هي فيه ؟ أو مجردة عنه ؟ .. كل هذه صفات لم يصل العقل الى اثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه ، وانما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حي له شعور وارادة ، وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع الى تلك العوارض التي وصل اليها ببديهته ، آما كنه شيء من ذلك ، وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ، ولا يجد سبيلا للعلم به .

هذا حال العقل الانساني مع ما يساويه في الوجود او ينحط عنه ، بل وكذلك شأنه فيما يظن من الأفعال انه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق ، فما يكون من أمره بالنسبة الى ذلك الوجود الأعلى ؟ ماذا يكون اندهاشه ، بل انقطاعه (١) اذا وجه نظره الى ما لا يتناهى من الوجود الأزلي الأبدي ؟؟ .

---

(١) الانقطاع هنا بمعنى العجز .

النظر فى الخلق يهدى بالضرورة الى المنافع الدنيوية ، ويضىء للنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره وعليها تجلت انواره ، والى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هى عليه من النظام .

وتخالف الأنظار فى الكون انما هو من تصارع الحق والباطل ، ولابد أن يظفر الحق ويعلو الباطل بتعاون الأفكار ، أو صولة القوى منها على الضعيف .

أما الفكر فى ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة ، وهو ممتنع على العقل البشرى ، لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركيب فى ذاته ، وتطاول الى ما لا تبلغه القوة البشرية ، من جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة ؟ لأنه سعى الى ما لا يدرك ، ومهلكة لأنه يؤدى الى الخبط فى الاعتقاد ، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده ، وحصر لما لا يصح حصره .

لا ريب ان هذا الحديث ، وما أتينا عليه من البيان ، كما ياتى فى الذات من حيث هى ياتى فيها مع صفاتها ، فالنهى واستحالة الوصول الى الاكتناه شاملان لها ، فيكفينا من العلم بها ان نعلم انه متصف بها ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز ، وما سبقه من الكتب ، الا بتوجيه النظر الى المصنوع لينفذ منه الى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية ، أما كيفية الاتصاف بها فليس من شأننا أن نبحث فيه .

فالذى يوجبه علينا الايمان هو أن نعلم انه موجود ، لا يشبه الكائنات ، أزلى ، أبدى ، حى ، عالم ، مريد ، قادر ، منفرد فى وجوده ، وفى صفاته ، وفى صنع خلقه ، وانه متكلم ، سميع ، بصير ، وما يتبع ذلك من

الصفات آلتى جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه . أما كون الصفات زائدة على الذات ، وكون الـكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية ، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ، ونحو ذلك من الشئون التى اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب فمما لا يجوز الخوض فيه ، اذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل اليه ، والاستدلال على شىء منه بالألفاظ الواردة ضعف فى العقل وتغرير بالشرع ، لأن استعمال اللغة لا ينحصر فى الحقيقة ، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقى ، وانما تلك مذاهب فلسفة ، ان لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق الى مقنع . فما علينا الا الوقوف عندما تبلغه عقولنا ، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا .

أفعال الله جلّ شأنه

افعال الله صادرة عن علمه وارادته ، كما سبق تقديره ، وكل ما صدر عن علم وارادة فهو عن الاختيار ، ولا شيء مما يصدر عن الاختيار ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته ، فلا شيء من افعاله بواجب الصدور عنه لذاته فجميع صفات الأفعال من : خلق ، ورزق ، واعطاء ، ومنع ، وتعذيب ، وتنعيم ، مما يثبت له تعالى بالامكان الخاص ، فلا يطوفن بعقل عاقل ـ بعد تسليم انه فاعل عن علم وارادة ـ أن يتوهم أن شيئا من أفعاله واجب عنه لذاته ، كما هو الشأن فى لوازم الماهيات ، أو فى اتصاف الواجب بصفاته مثلا ، فان ذلك هو التناقض البديهى الاستحالة ، كما سبقت الاشارة اليه .

بقيت علينا جولة نظر فى تلك المقالات الحمقى التى اختبط فيها القوم اختباط اخوة تفرقت بهم الطرق فى السير الى مقصد واحد ، حتى اذا التقوا فى غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستنجد ، فظن كلّ ان الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده ، فاستمر بينهم القتال ، ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ، ولما اسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد

الى ما بقى ، وهم الناجون ، ولو تعـــارفوا من قبل لتعاونوا جميعا على بلوغ ما أملوا ، ولوافتهم الغـاية اخوانا بنور الحق مهتـــدين ، نريد تلك المقـــالات المضطربة فى انه يجب على الله رعاية المصـــلحة فى أفعاله (١) ، وتحقيق وعيده فيمن تعدى حدوده من عبيده (٢) ، وما يتلو ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأعراض ، فقد بالغ قوم فى الايجاب حتى ظن الناظر فى مزاعمهم أنهم عدوه واحدا من المكلفين ، يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقـــوق وتأدية ما لزمه من الواجبات ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

وغلا آخرون فى نفى التعليل عن أفعاله حتى خيل للممعن فى مقالاتهم أنهم لا يرضونه الا قلبا يبرم اليوم ما نقضه بالأمس ، ويفعل غدا ما أخبر بنقيضه اليوم ، أو غافلا لا يشعر بما يستتبعه عمله ، (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) (٣) ، وهو أحكم الحاكمين وأصدق القائلين ، جبروت الله وطهـــارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله .

اتفق الجميع على ان أفعاله لا تخلو من حكمة ، وصرح الغلاة والمقصرون جميعا بأنه تعالى منزه عن العبث فى افعاله ، والكذب فى أقواله ، ثم بعد هذا اخذوا يتنابذون بالألفاظ ويتمارون فى الأوضاع ، ولا يدرى الى اى

---

(١) وهو مايعرف عند المعتزلة من ان الله سبحانه يجب عليه فعل الصلاح والاصلح لعباده .

(٢) وهو أحد الاصول الخمســة عند المعتزلة ، ســموه صدق الوعد والوعيد ، وأحالوا عليه ان يتخلف وعده للطائعين ووعيده للعاصين . انظر الفصل الذى كتبناه عن هذه الاصول الخمسة فى بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية) طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(٣) الصافات : ١٨٠ .

غاية يقصدون ، فلنأخذ ما اتفقوا عليه ، ولنرد الى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه .

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاما أو يدفع فسادا ، خاصا كان أو عاما ، لو كشف للعقل من أى وجه لعقله ، وحكم بأن العمل لم يكن عبثا ولعبا ، ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع الى هذا حاكمناه الى أوضاع اللغـة ، وبداهة العقل . لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ، ولا يتمثل عند العقل بمثالها الا اذا كان ما يتبع العمل مرادا لفاعله بالفعل ، والا لعد النائم حكيما فيما لو صدرت عنه حركة فى نومه قتلت عقربا كاد يلسع طفلا ، أو دفعت صبيا عن حفرة كاد يسقط فيهـا ، بل لوسم بالحكمة كثير من العجمـاوات اذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة ، والبداهة تأباه .

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء أن أفعال العـاقل تصان عن العبث . ولا يريدون من العاقل الا العالم بما يصدر عنه بارادته ، ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر الا لأمر يترتب عليها ، يكون غاية لها ، وان كان هذا فى العاقل الحادث فما ظنك بمصدر كل عقل ومنتهى الكمال فى العلم والحكم ؟ كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد .

صنع الله الذى أتقن كل شىء ، وأحسن خلقـه ، مشحون بضروب الحكم ، ففيه ما قامت به السماوات والأرض وما بينهما ، وحفظ به نظام الكون بأسره ، وما صانه عن الفساد الذى يفضى به الى العدم ، وفيه ما استقامت به مصـلحة كل موجود على حـدته ، خصوصا ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان ،

واولا هذه البدائع من الحـــكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه .

فهذه الحــــكم التى نعرفها الآن بوضع كل شىء فى موضعه ، وايتاء كل محتاج ما له اليه الحاجة ، اما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا .. لا يمكن القول بالثانى ، والا لكان قولا بقصور العلم ان لم تكن معلومة ، أو بالغفلة ان لم تكن مرادة ، وقد سبق تحقيق ان علمه وسع كل شىء ، واستحالة غيبة أثر من آثار ارادته ، فهو يريد الفعل ، ويريد ما يترتب عليه من الحكمة ، ولا معنى لهذا الا ارادته للحــــكمة من حيث هى تابعة للفعل .

ومن المحال ان تكون الحكمة غير مرادة بالفعل ، مع العلم بارتباطها به ، فيجب الاعتقاد بأن افعاله يستحيل ان تكون خالية من الحكمة ، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة ، اذ لو صح توهم ان ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة ، كما سبق .

فوجوب الحكمة فى أفعاله تابع لوجوب الكمال فى علمه وارادته ، وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين، وهكذا يقال فى وجوب تحقيق ما وعد وأوعد به ، فانه تابع لكمال علمه وارادته وصدقه ، وهو أصدق القائلين ، وما جاء فى الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب ارجاعه الى بقية الآيات وسائر الآثار ، حتى ينطبق الجميع على ما هدت اليه البديهيات السابق ايرادها ، وعلى ما يليق بكمال الله ، وبالغ حكمته ، وجليل عظمته ، والأصل الذى يرجع اليه كل وارد فى هذا الباب قـوله تعالى :

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ، لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ[1] .

وقوله : (لاتخذناه من لدنا) اى لصـــدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق ، الذى لا يشوبه نقص ، وهو محال ، وان فى قوله : (ان كنا فاعلين) ، نافية ، وهو نتيجة القياس السابق .

بقى أن الناظرين فى هذه الحقـــائق ينقسمون الى قسمين : فمنهم من يطلب علمها لأنه شهوة العقل وفيه لذته ، فهذا القسم يسمى المعانى بأسمائها ولا يبالى جوز الشرع اطلاقها فى جانب الله أم لم يجوز، فيسمى الحكمة غاية وغرضا ، وعلة غائية ، ورعاية للمصلحة ، وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عنانا يرده عن اطلاقه اسما متى صح عنده معناه ، وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له ؛ غير مبال بما يوهمه اللفظ .

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة ان ذلك دين يتعبد به ، واعتقاد بشئون لاله عظيم يعبد بالتحميد والتعظيم ، ويجب الاحتياط فى تنزيهه حتى بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصا فى جانبه ، فيتبرأ من تلك الألفاظ ، مفردها ومركبها ، فان الوجوب عليـــــه يوهم التكليف

---

(١) الانبياء : ١٦ ـ ١٨ .

والالزام ، وبعبارة أخرى يوهم القهر والتأثر بالأغيار ، ورعاية المصلحة توهم اعمال النظر واجالة الفكر ، وهما من لوازم النقص فى العلم والغـــاية ، والعلة الغـائية والغرض توهم حركة فى نفس الفاعل من قبل البدء فى العمل الى نهايته ، وفيها ما فى سوابقها ، ولـكن الله اكبر .. هل يصح أن تكون سعة المجال أو التعفف فى المقال سببا فى التفـــرقة بين المؤمنين ، وتماريهم فى الجدال حتى ينتهى بهم التفرق الى ما صاروا اليه من سوء الحال ؟! .

أفعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه انه موجود ، ولا يحتاج في ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد انه مدرك لأعماله الاختيارية ، يزن نتائجها بعقله ، ويقدرها بارادته ، ثم يصدرها بقدرة ما فيه ، ويعد انكار شيء من ذلك مساويا لانكار وجوده ، في مجافاته لبداهة العقل .

كما يشهد بذلك في نفسه يشهده أيضا في بني نوعه كافة ، متى كانوا مثله في سلامة العقل والحواس ، ومع ذلك فقد يريد ارضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته ، وربما سعى الى منجاة فسقط في مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه ان كان لم يحكم النظر في تقدير فعله ، ويتخذ من خيبته اول أمره مرشدا له في الاخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم وبوسائل أحكم ، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهي ، ان كان سبب الاخفاق في المسعى منازعة منافس له في مطلبه ، لوجدانه من نفسه أنه الفاعل في حرمانه ، فينبري لمناضلته ، وتارة يتجه الى أمر أسمى من ذلك ، ان لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقي من

مصير عمله ، كأن هب ريح فأغرق بضاعته ، او نزل صاعق فأحرق ماشيته ، أو علق أمله بمعين فمات ، أو بذى منصب فعزل ، يتجه من ذلك الى أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطانا لا تصل اليه سلطته ، فان كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل الى ان حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب وجود واحد ، يصرفه على مقتضى علمه وارادته ، خشع وخضع ، ورد الأمر اليه فيما لقى ، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى ، فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان ان قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات ، يشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية ، عقلية كانت أو جسمانية ، قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله ، وقد عرف القوم شكر الله على نعمه فقالوا : هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه الى ما خلق لأجله .

على هذا قامت الشرائع ، وبه استقامت التكاليف ، ومن أنكر شيئا منه فقد أنكر مكان الايمان من نفسه ، وهو عقله الذى شرفه الله بالخطاب فى أوامره ونواهيه .

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من احاطة علم الله وارادته وقدرته ، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول اليه ، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصا من المسيحيين والمسلمين ، ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفا حيث ابتدءوا ، وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا ، فمنهم القائل بسلطة

العبد على جميع أفعاله واستقلالها المطلق (١) ، وهو غرور ظاهر ، ومنهم من قال بالجبر وصرح به (٢) ، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه (٣) ، وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف وابطال لحكم العقل البديهى ، وهو عماد الايمان .

ودعوى ان الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدى الى الاشراك بالله ، وهو الظلم العظيم ، دعوى من يلتفت الى معنى الاشراك على ما جاء به الكتاب والسنة ، فالاشراك : اعتقاد ان لغير الله اثرا فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة ، وأن لشيء من الأشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة المخلوقين . وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعينا به فيما لا يقدر العبد عليه ، كالاستنصار فى الحرب بغير قوة الجيوش . والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله اليها ، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التى شرعها الله لنا . هذا هو الشرك الذى كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم ، فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية الى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية :

---

(١) هم المعتزلة ومن رأى رأيهم

(٢) وهم الجبرية الخلص ، وأول فرقهم « الجهمية » أتباع الجهم بن صفوان ، المتوفى سنة ١٢٨ هـ ، وسارت على دربهم هذا فرق كثيرة . أنظر الفصل الذى كتبناه عن الجبرية فى بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية) .

(٣) هم الاشعرية الذين لايغنى عنهم قولهم بالكسب شيئا من الانفاق فى نهاية المطاف مع الجبرية . أنظر فى ذلك بحثنا السابق أيضا .

الأول : أن العبد يكسب بارادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته .

والثاني : ان قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات ، وان من آثارها ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريده ، وان لا شيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه .

جاءت الشريعة لتقرير ذلك ، وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه في توفيقه الى اتمام عمله ، بعد احكام البصيرة فيه ، وتكليفه بأن يرفع همته الى استمداد العون منه وحده ، بعد أن يكون قد افرغ ما عنده من الجهد في تصحيح الفكر واجادة العمل . ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب الى غير ذلك .

وهذا الذي قررناه قد اهتدى اليه سلف الأمة فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم ، وعول عليه من متأخري اهل النظر امام الحرمين الجويني ، رحمه الله ، وان أنكر عليه بعض من لم يفهمه .

اكرر القول بأن الايمان بوحدانية الله لا يقتضي من المكلف الا اعتقاد أن الله صرفه في قواه ، فهو كاسب لايمانه ولما كلفه الله به من بقية الأعمال ، واعتقاد ان قدرة الله فوق قدرته ، ولها وحدها السلطان الأعلى في اتمام مراد العبد بازالة الموانع او تهيئة الأسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت ارادته .

اما التطلع الى ما هو اغمض من ذلك فليس من مقتضى الايمان ، كما بينا ، وانما هو من شره العقول في طلب رفع الاستار على الاسرار ، ولا أنكر ان قوما قد وصلوا بقوة العلم ، والمثابرة على مجاهدة المدارك الى ما اطمأنت

به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ، ولكن قليل ما هم . على ان ذلك نور يقذفه الله في قلب من شاء ، ويخص به أهل الولاية والصفاء . وكثر ما ضل قوم وأضلوا ، وكان لمقالاتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم ، لو شئت لقربت البعيد فقلت : ان من بالغ الحكم في الكون أن تتنوع الأنواع على ما هي عليه في العيان ، ولا يكون النوع ممتازا عن غيره حتى تلزمه خواص ، وكذا الحال في تميز الأشخاص ، فواهب الوجود يهب الأنواع والأشخاص وجودها على ما هي عليه ، ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه .

اختيار الانسان

ومن تلك الأنواع الانسان ، ومن مميزاته حتى يكون غير سائر الحيوانات ، ان يكون مفكرا مختارا في عمله على مقتضى فكره ، فوجوده الموهوب مستتبع لميزاته هذه ، ولو سلب شيء منها لكان اما ملكا أو حيوانا آخر ، والفرض انه الانسان ، فهبة الوجود له لا شيء فيها من القهر على العمل .

ثم علم الواجب محيط بما يقع من الانسان بارادته ، وبأن عمل كذا يصدر في وقت كذا ، وهو خير يثاب عليه ، وان عملا آخر يعاقب عليه . عقاب الشر والأعمال في جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والاختيار ، فلا شيء في العلم بسالب للتخيير في الكسب ، وكون ما في العلم يقع لا محالة انما جاء من حيث هو الواقع ، والواقع لا يتبدل ، ولنا في علومنا الكونية أقرب الأمثال : شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن

عصيانه لأميره باختياره يحل به عقوبته لا محالة ، لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة ، وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر فى اختياره ، لا بالمنع ولا بالالزام ، فانكشاف الواقع للعالم لا يصح فى نظر العقل ملزما ولا مانعا ، وانمـــا يربك الوهم تغيير العبارات وتشعب الألفاظ . ولو شئت لزدت فى بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح ، ولم تفسد فطرته بالماحكات اللفظية ، لكن يمنعنى عن الاطالة فيه عدم الحاجة اليه فى صحة الايمان وتقاصر عقول العامة عن ادراك الأمر فى ذاته مهما بالغ المعبر فى الايضاح عنه ، والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليـــد ، فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ، ولا يريدونه الا موافقا لما يعتقدون ، فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا فى مقاومته وان أدى ذلك الى جحد العقــل برمته ، فأكثــرهم يعتقد فيستدل ، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد ، فان صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم : ويل للخابط ، ذلك قلب لسنة الله فى خلقه ، وتحريف لهديه فى شرعه ، عرتهم هزة من الجزع ، ثم عادوا الى السكون محتجين بأن هذا هو المألوف ، وما أقمنا الا على معروف . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

حسن الأفعال وقبحها

الأفعال الانسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنا ، وما تنفعل به نفوسنا عند الاحساس بهـــا أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقـــوع بعض الكائنات تحت

حواسنا أو حضورها فى مخيلاتنا ، وذلك بديهى لا يحتاج الى دليل .

نجد فى أنفسنا بالضرورة تمييزا بين الجميـــل من الأشياء والقبيح منها ، فان اختلفت مشارب الرجال فى جمال النساء ، أو مشارب النساء فى معنى جمال الرجال ، فلم يختلف أحد فى جمال الوان الأزهار ، وتنضيد أوراق النباتات والأشـــــجار ، خصوصا اذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الألوان بعضها مع بعض ، ولا فى قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض أجزائهـــــا ، وانقطاع البعض الآخر على غير نظام ، وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو اعجابا ، ومن القبيح اشمئزازا أو جزعا ، وكما يقع هذا التمييز فى المبصرات يقع فى غيرها من المسموعات والملموسات والمذوقات والمشمومات ، كما هو معروف لكل حساس من بنى آدم باحدى تلك الحواس .

ليس هذا موضع تحديد ما هو الجمال وما هو القبح فى الأشياء ، ولكن لا يخالفنا احد فى أن من خواص الانسان ، بل وبعض الحيوان ، التمييز بينهما ، وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف أنواعها ، وبه ارتقى العمران فى أطواره الى الحد الذى تراه عليـــه الآن ، وان اختلفت الأذوق ففى الأشياء جمال وقبح .

***

هذا فى المحسوسات واضح كما سبق ، ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة فى الوضـــــوح ما يلم به العقل من الموجودات المعقولة ، وان اختلف اعتبار الجمال فيها ، فالكمال فى المعقولات كالوجــــود والواجب ، والأرواح

اللطيفة ، وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه ، وتنبهر له بصائر لاحظيه ، وللنقص قبح لا تنكره المدارك العالية ، وان اختلف اثر الشعور ببعض أطواره في الوجدان من أثر الاحساس بالقبيح فى المحسوسات ، وهل فى الناس من ينكر قبح النقص فى العقل ، والسقوط فى الهمة ، وضعف العزيمة ؟؟ ويكفى أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون فى اخفائها ويفخرون أحيانا بأنهم متصفون بأضدادها .

وقد يجمل القبيح بجمال أثره ، ويقبح الجميل بقبح ما يقترن به ، فالمر قبيح مستبشع ، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر ، لكن أثر المر فى معالجة المرض ، وعدل الدميم فى رعيته ، أو احسانه اليك فى خاصة نفسك ، يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته ، فان جمال الأثر يلقى على صاحبه اشعة من بهائه ، فلا يشعر الوجدان منه الا بالجميل . ومثل ذلك يقال فى قبح الحلو اذا أمز ، واشمئزاز النفس من الجميل اذا ظلم وأضر .

هل يمكن لعاقل أن يقول فى الأفعال اختيارية كما قال فى الموجدات الكونية ، مع انها نوع منها ، وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية ، اما بنفسها واما بأثرها ، وتنفعل نفوسنا بما يلم بها منها كما يرد عليها من صور الكائنات ؟؟ .. كلا .. بل هى قسم من الموجدات ، حكمها فى ذلك حكم سائرها بالبداهة .

***

فمن الأفعال الاختيارية ما هو معجب فى نفسه ، تجد النفس منه ما تجد من جمال الخلق ، كالحركات

العســـكرية المنتظمة ، وتقلب المهرة من اللاعبين فى الالاعيب المعروفة اليوم « بالجمناستيك » ، وكايقاعات النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها ، ومنها ما هو قبيح فى نفسه ، يحس منه ما يحس من رؤية الخلق المشوه ، كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع ، وكولولة النائحات ونقع (١) المذعورين .

ومنها ما هو قبيح لما يعقبه من الألم ، وما هو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الألم ، فالأول كالضرب والجرح وكل ما يؤلم من أفعال الانسان ، والثانى كالأكل على جوع والشرب على عطش ، وكل ما يحصل لذة أو يدفع الما مما لا يحصى عده ، وفى هذا القسم يكون الحسن بمعنى ما يلذ والقبيح بمعنى المؤلم .

وقلمـــا يختلف تمييز الانسان للحسن والقبيح من الأفعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيـوانات المرتقية فى سلسلة الوجود ، اللهم الا فى قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح .

***

ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع ، وما يقبح بما يجر اليه من الضرر ، ويختص الانسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى اذا أخذ من أكمل وجهاته ، وقلما يشاركه فيه حيوان آخر ، اللهم الا من أحط جهاته وهو خاصة العقل وسر الحكمة الالهية فى هبة الفكر .

فمن اللذيذ ما يقبح لشؤم عاقبته ، كالافراط فى تناول الطعام والشراب ، والانقطاع الى سماع الأغانى ،

---

(١) من معانيه ارتفاع الصوت والغبار ، وشق الجيوب .

والجرى فى أعقاب الشهوات ، فان ذلك مفسدة للصحة، مضيعة للعقل ، متلفة للمال ، مدعاة للعجز والذل ، وانما قبح اللذيذ فى هذا الموضع لقصر مدته ، وطول مدة ما يجر اليه عادة من الآلام التى قد لا تنتهى الا بالموت على أسوأ حالاته ، ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاسات شدائد الألم .

ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب فى الأعمال لكسب الرزق ، وتأمين النفس على حاجاتها فى أوقات الضعف ، ومجاهدة الشهوات ، ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حينا من الزمن ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب ، أو على نمط يخفف من رزايا الحياة ، ان عدت الحياة مثارا لها .

ومن المؤلم الذى عده العقل البشرى حسنا مقارعة الانسان عدوه ، سواء كان من نوعه أو من غيره ، للمدافعة عن نفسه و أو عن أنصاره ، ومنهم بنو أبيه أو قبيلته أو شعبه أو أمته ، حسب ارتقائه فى الاحساس ، ومخاطرته حتى بحياته فى سبيل ذلك ، كأنه يرى فى بذل هذه الحياة أمنا على حياة أخرى تشعر بها نفسه وان لم يحددها عقله .

ومنه معاناة التعب فى كشف ما عمى عن علمه من حقائق الكون ، كأنه لا يرى المشقة فى ذلك شيئا بالقياس الى ما يحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ما له من الاستطاعة .

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد الى ما كسبه

الغير بسعيه واستشفاء ألم الحقد باتلاف نفس الحقود عليه أو ماله ، لما في ذلك من جانب المخافة العامة حتى على ذات المعتدي ، ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها .

كل هذا عرفه العقل البشري ، وفرق فيه بين الضار والنافع ، وسمى الأول فعل الشر والثاني عمل الخير ، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، وقد حددهمـــا النظر الفكرى على تفاوت فى الاجمال والتفصيل للتفاوت فى درجات عقول الناظرين ، وناط بهما سعادة الانسان وشقاءه في هذه الحياة ، كما ربط بهما نظام العمران البشرى وفســاده وعزة الأمم وذلتها وضعفها وقوتها ، وان كان المحددون لذلك والآخذون فيه بحظ الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر .

***

كل هذا من الأوليات العقلية ، لم يختلف فيه ملى ولا فيلسوف . فللأعمال الاختيارية ، حسن وقبح فى نفسها ، أو باعتبار أثرها فى الخاصة أو فى العامة ، والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعانى السابقة ، بدون توقف على سمع .

والشاهد على ذلك ما تراه فى بعض أصناف الحيوان، وما نشـــــهده من افاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع ، وما وصل الينا من تاريخ الانسان وما عرف عنه فى جاهليته .

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين فى أحوال النمل ، قال : كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيت لها ، فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل ، فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع

المناسب ، فأمرت بهدمه ، فهدم ، ورفع البنيان ألى الحد الموافق ، ووضع السقف على أرفع مما كان ، وذلك من انقاض السقف القديم . وهذا هو التمييز بين الضار والنافع ، فمن زعم أن لا حسن ولا قبح فى الأعمال على الاطلاق فقد سلب نفسه العقل ، بل عدها أشد حمقا من النمل .

***

سبق لنا ان واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل ، فاذا وصل مستدل ببرهانه الى اثبات الواجب وصفاته الغير السمعية ، ولم تبلغه بذلك رسالة ، كما حصل لبعض أقوام من البشر ، ثم انتقل من النظر فى ذلك وفى أطوار نفسه الى ان مبدأ العقل فى الانسان يبقى بعد موته ، كما وقع لقوم آخرين ، ثم انتقل من هذا مخطئا أو مصيبا ، الى ان بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لها فيه أو شقاء ، ثم قال : ان سعادتها انما تكون بمعرفة الله وبالفضائل ، وانها انما تسقط فى الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل ، وبنى على ذلك أن من الأعمال ما هو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ، ومنها ما هو ضار لها بعده بايقاعها فى الشقاء ، فأى مانع عقلى أو شرعى يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله : أن معرفة الله واجبة ، وان جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة ، وان الرذائل وما يكون عنها محظورة ؟؟ وان يصنع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر الى الاعتقاد بمثل ما يعتقد ، والى أن يأخذ من الأعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه .

اما أن يكون ذلك حالا لعامة الناس ، يعلمون بعقولهم ان معرفة الله واجبة ، وان الفضائل مناط السعادة في الحياة الأخرى ، والرذائل مدار الشقاء فيها ، فمما لا يستطيع عاقل ان يقول به ، والمشهود من حال الأمم كافة يضلل القائل به في رأيه .

لو كانت حاجات الانسان ومخاوفه محدودة كما هي حاجات فيل أو أســـد مثلا ، وكان ما وهب له من الفكر واقفا عند حد ما اليه الحاجة ، لاهتدى الى المنع واتقاء المضار علي وجه لا يختلف فيه أفراده ، ولسعدت حياته وتخلص كل من شر الآخر ، ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع . لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد ، ولا تختص معيشته بجــو من الأجواء ولا بوضع من الأوضاع ، وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله في سد عوزه وتوفير لذاته ، في أي اقليم ، وعلى أي حال ، وان يختلف ظهور هذه المدارك في أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافا لا تنتهي درجاته ، ولولا هذا لما اختلف عن بقية الحيوانات الا باستقامة القامة وعرض الاظفار .

***

وهب الله الانسان أو سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان : الذاكرة ، والمخيلة ، والمفكرة .

فالمذكرة : تثير من صور الماضي ما ستره الاشتغال بالحاضر ، فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه اليه الأشياء أو الأضداد الحاضرة ، فقد يذكر الشيء بشبهه وقد يذكره بضده ، كما هو بديهي .

والخيال : يجسم من المذكور ، وما يحيط به من الاحوال ، حتى يصير كأنه شاهد ، ثم ينشيء له مثال

لذة أو ألم فى المستقبل يحاكى ما ذهب به الماضى ، ويهمز النفس فى طلبه أو الهرب منه فتلجـــــأ الى الفكر : فى تدبير الوسيلة اليه .

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الانسان ، ومنها ينبوع بلائه . فمن الناس معتدل الذكر هادىء الخيال صحيح الفكر ، ينظر مثلا فى حال مسرف انفق ما له فى غير نافع ، وضاقت يده عما يقيم معيشته ، فيذكر الما لحــاجة مضت ، ثم يتخيل المال ومنافعــه وما تتمتع به النفس من اللذة به ، سواء فى دفع الألم الذى يحدثه مشهد الفاقة فى غيره ، باعطـــاء المضطر ما يذهب بضرورته ، ثم يتخيل ذلك المال آتيـــا من وجوهه التى لا يتعلق بها حق من حقوق غيره ، وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة اليه من تلك الوجـوه بالعمل القويم فى استخدام ما وهبه الله من القوى فى نفسه وما سخره له من قوى الكون المحيط به .

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال ، يرى مالا مثلا فى يد غيره ، فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال ، ويعظم له الخيال لذة مثلها فى المستقبل ، ولا يزال يعظم فى تلك االذة والتمتع بهـــا حتى يقع ظــــل الخيال على طريق الفكر فيستر عنه ما طاب من وجوه الكسب ، وانما يعمد الى استعمال قوته أو حيلته فى سلب المال من يد مالكه ، لينفقه فيما تخيل من المنفعة ، فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له ، وأخل بالأمن الذى أفاضه الله بين عباده ، وسن سنة الاعتداء ، فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول الى الراحة من اعمال المقترفين لمثل عمله .

وخفيف من النظر فى أعمال البشر يجليها جميعا على

نحو ما بينا فى المثالين ، فللقوة الذاكرة وضعفها ، ولحدة الخيال واعتداله ، واعوجاج الفكر واستقامته أعظم الأثر فى التمييز بين النافع والضار فى اشخاص الأعمال ، وللأمزجة والأجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخيل والفكر ، بل وفى الذكر .

فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع ، ومنها ما هو ضار ، وبعبارة أخرى : منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه اصابة وجه الحق فى معرفة ذلك . ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان ادوم فائدة وان كان مؤلما فى الحال ، وأن القبيح ما جر الى فساد فى النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به ، وان عظمت لذته الحاضرة ، ولكنهم يختلفون فى النظر الى كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم ، فلذلك ضربوا الى الشر فى كل وجه ، وكل يظن انه انما يطلب نافعا ويتقى ضارا .

فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه سعادته فى هذه الحياة ، اللهم الا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن ، فان كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم اشار اليهم الدهر بأصابع الأجيال ، وقد سبقت الاشارة اليهم فيما مر .

وليست عقول الناس سواء فى معرفة الله تعالى ، ولا فى معرفة حياة بعد هذه الحياة ، فهم وان اتفقوا فى الخضوع لقوة اسمى من قواهم ، وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ، ولكن أفسدت الوثنية عقولهم ،

وانحرفت بها عن مسلك السعادة ، فليس فى سعة العقل الانسانى فى الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ، ولا أن يقـــرر لـكل نوع من الأعمـــال جزاءه فى تلك الدار الآخرة ، وانما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل ، ونور البصيرة ، وان لم ينل شرف الاقتداء بهدى نبوى ، ولو بلغه لـكان أسرع الى اتباعه ، وهؤلاء ربما يصلون بأفـكارهم الى العرفان من وجه غير ما يليق فى الحقيقة أن ينظر منه الى الجلال الالهى .

ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى ان يصل اليه وحده ، وهـو تفصيل اللذائذ والآلام ، وطرق المحاسبة على الأعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة ، لا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها ، كصـور العبادات ، كما يرى فى أعداد الركعات ، وبعض الأعمال فى الحج فى الديانة الاسلامية وكبعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية ، وضروب التوسل والزهادة فى الديانة العيسوية ، كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشرى أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه ، ويعلم الله أن فيه سعادته .

لهذا كله كان العقل الانسانى محتاجا ، فى قيادة القوى الادراكية والبـــدنية الى ما هو خير له فى الحيـاتين ، الى معين يستعين به فى تحـديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الألوهية ، ومعرفة ما ينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة ، ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من جنسه ، ليفهم منه أو عنه ما يقول ، وحتى يكون ممتازا على

سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف في العادة وما عرف في سنة الخليقة ، ويكون بذلك مبرهنا على أنه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ما هى عليه ، ويعلم صفاته الكمالية ، وما ينبغى أن يعرف منها ، والحياة الآخرة ، وما أعد فيها ، فيكون الفهم عنه ، والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير ، معينا للعقل على ضبط ماتشتت عليه ، أو درك ما ضعف عن ادراكه ، وذلك المعين هو النبى .

النبوة تحـــدد ما ينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات ، وما يحتاج اليه البشر كافة من ذلك ، وتشير الى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم من مقـامات عرفانهم ، لـكنها لا تحتم الا ما فيه الـكفاية العامة ، فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله ، وبوحدانيته ، وبالصفات التى اثبتناها ، على الوجه الذى بيناه ، وأرشدت الى طرق الاستدلال على ذلك ، فوجوب المعـرفة على هـذا الوجه المخصوص ، وحسن المعرفة ، وحظر الجهالة والجحود بشىء أوجبه الشرع فى ذلك وقبحه مما لا يعرف الا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس ، ولو استقل عقل بشرى بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذى هو عماد الطمأنينة ، فان زيد على ذلك أن العرفان ، على ما بينه الشرع ، يستحق المثوبة المعينـة فيـه ، وضده يستحق العقوبة التى نص عليها ، كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة ، غير ان ذلك لا ينافى أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة فى نفسها ، وانما جاء الشرع مبينا للواقع ، فهو ليس محدث الحسن ، ونصوصه تؤيد ذلك ، واذكر مثالا من كثير :

قال تعالى على لسان يوسف : « أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار » (١) يشيرون بذلك اشارة واضحة الى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر فى وجهة قلوبهم الى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم ، وهو يذهب بكل قوتهم الى التعصب لما وجه قلبه اليه ، وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى ، أما اعتقاد جميعهم باله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم الى سلطان واحد ، يخضع الجميع لحكمه ، وفى ذلك نظام أخوتهم ، وهى قاعدة سعادتهم ، والبها مآلهم فيما أعتقد وان طال الزمان ، فكما جاء الشرع مطالبا بالاعتقاد جاء هاديا لوجه الحسن فيه .

النبوة تحدد أنواع الأعمال التى تناط بها سعادة الانسان فى الدارين ، وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التى حددتها ، وكثيرا ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى عنه ، فوجوب عمل من المأمور به ، أو الندب اليه ، وحظر عمل ، أو كراهته من المنهى عنه على الوجه الذى حددته الشريعة ، وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا ، ومجازى عليه بعقوبة كذا ، مما لا يستقل العقل بمعرفته ، بل طريقة معرفته شرعية، وهو لا ينافى أيضا أن يكون المأمور به حسنا فى ذاته ، بمعنى أنه مما يؤدى الى منفعة دنيوية أو أخروية ، باعتبار أثره فى أحوال المعيشة ، أو فى صحة البدن ، أو حفظ النفس أو المال أو العرض ، أو فى زيادة تعلق القلب بالله ، جلّ شأنه ، كما هو مفصل فى الأحكام الشرعية . وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن درك حسنه ، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه ، وهذا النوع لا حسن له الا الأمر ولا قبح الا النهى . والله أعلم .

---

(١) يوسف : ٣٩ .

الرسالة العامة

نريد من الرسالة العامة ، بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن الله خالق الانسان وموفيه ما لا غنى له عنه ، كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجتها ، ووقاء وجودها ، على القدر الذى حدد لها فى رتبة نوعها من الوجود .

والكلام فى هذا البحث من وجهين :

الأول : وهو أيسرهما على المتكلم ، وجه ان الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من اركان الايمان ، فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد بأن الله أرسل رسلا من البشر ، مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه ، قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه القاهر على عباده ، وتفصيل لأحكامه فى فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها ، وفى مثالب فعال وخلائق ينهاهم عنها ، وأن يعتقد بوجوب تصديقهم فى انهم يبلغون ذلك عن الله ، ووجوب الاقتداء بهم فى سيرهم ، والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه ، وأن يعتقد بأن منهم من انزل الله عليه كتبا تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ومن الحدود والأحكام التى علم الخير لعباده فى الوقوف عندها ، وان هذه الكتب التي نزلت

عليهم حق ، وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العنـــاية الالهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية ، وأن هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبى فى دعواه ، فمتى ادعى الرسول النبوة ، واستدل عليها بالمعجزة ، وجب التصديق برسالته .

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقـــاد بعلو فطرتهم ، وصحة عقـولهم ، وصـــدقهم فى أقوالهم ، وامانتهم فى تبليغ ما عهد اليهم أن يبلغوه ، وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية ، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار وتنفر منه الأذواق السليمة ، وأنهم منزهون عما يضاد شيئا من هذه الصفات المتقدمة ، وان أرواحهم ممدودة من الجلال الالهى بمـــا لا يمكن معه لنفس انسانية ان تسطو عليها سطوة روحانية .

اما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم ما يعترى سائر افراده ، يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ، ويمرضون وتمتد اليهم أيدى الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتلون .

***

المعجـــزة

المعجزة : ليست من نوع المستحيل عقلا ، فان مخالفة السير الطبيعى المعروف فى الايجاد مما لم يقم دليل على استحالته ، بل ذلك مما يقع ، كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيهـــا وهو صحيح لمات ، مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف .

فان قيل : ان ذلك لابد أن يكون تابعا لناموس آخر طبيعى ، قلنا : ان واضع الناموس هو موجد الكائنات ، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما فى الأمر اننا لا نعرفها ، ولكننا نرى اثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده .

على اننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار ، يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أى هيئة ، وتابعا لأى سبب ، اذا سبق فى علمه انه يحدث كذلك .

المعجزة لابد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة ، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده ، لأن النبى يستند اليها فى دعواه انه مبلغ عن الله ، فاصدار الله لها عند ذلك يعد تأييدا منه له فى تلك الدعوى ، ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب ، فان تأييد الكاذب تصديق له ، وتصديق الكاذب كذب ، وهو محال على الله . فمتى ظهرت المعجزة ، وهى مما لا يقدر عليه البشر ، وقارن ظهورها دعوى النبوة ، علم بالضرورة ان الله ما أظهرها الا تصديقا لمن ظهرت على يده ، وان كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة .

وأما السحر وأمثاله فان سلم ان مظاهره فائقة عن آثار الأجسام والجسمانيات ، فهى لا تعلو عن متناول القوى الممكنة ، فلا يقارب المعجزة فى شىء .

***

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبياء ، فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم ، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس اخر ، أو مس عقولهم شىء من

الضعف ، لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الالهى الذى يفوق كل اختصاص : اختصاصهم بوحيه ، والكشف لهم عن أسرار علمه .

ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات ، لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر فى انكار دعواهم ، ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ، ولكانوا مضلين لا مرشدين ، فتذهب الحكمة من بعثهم ، والأمر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد اليهم تبليغه من العقائد والأحكام .

أما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ، ولا له مدخل فى التشريع ، فجوزه بعضهم ، والجمهور على خلافه ، وما ورد من مثل ان النبى صلى الله عليه وسلم ، نهى عن تأبير النخل ، ثم أباحه لظهور اثره فى الاثمار ، فانما فعله عليه الصلاة والسلام ، ليعلم الناس ان ما يتخذوه من وسائل الكسب ، وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم ، ولا حظر عليهم فيه ما دامت الشرائع مرعية والفضائل محمية . وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فمما خفى فيه سر النهى عن الأكل ، والمؤاخذة عليه ، وغاية ما علمناه من حكمته انه كان سببا لعمارة الأرض ببنى آدم . كان النهى والأكل رمزان الى طورين من أطوار آدم ، عليه السلام ، أو مظهران من مظاهر النوع الانسانى فى الوجود . والله أعلم . ومن العسر اقامة الدليل العقلى أو اصابة دليل شرعى يقطع بما ذهب اليه الجمهور .

حاجة البشر الى الرسالة

(الوجه الثانى) : سبق لك فى الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه الأول ، وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده فى الرسل ، والكلام فى هذا الفصل موجه ، ان شاء الله ، الى بيان الحاجة اليهم ، وهو معترك الافهام ، ومزلة الاقدام ، ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام .

ولسنا بصدد الاتيان بما قاله الأولون ، ولا عرض ما ذهب اليه الآخرون ، ولكنا نلزم ما التزمنا فى هذه الوريقات من بيان المعتقد ، والذهاب اليه من أقرب الطرق ، من غير نظر الى ما مال اليه المخالف أو استقام عليه الموافق ، اللهم الا اشارة من طرف خفى أو الماعا لا يستغنى عنه القول الجلى .

وللكلام فى بيان الحاجة الى الرسل مسلكان :

الأول : وقد سبق الاشارة اليه يبتدىء من الاعتقاد ببقاء النفس الانسانية بعد الموت ، وان حياة أخرى بعد الحياة الدنيا ، تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم ، وان السعادة والشقاء فى تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء فى حياته الفانية ، سواء كانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والارادات ، أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات .

اتفقت كلمة البشر ، موحدين ووثنيين ، مليين وفلاسفة ، الا قليلا لا يقام لهم وزن ، على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن ، وانها لا تموت موت فناء مطلقا ، وانما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وان اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء ، وفيما تكون عليه النفس وتباينت مشاربهم فى

طرق الاستدلال عليه ، فمن قائل بالتناسخ (١) فى اجساد البشر أو الحيوان على الدوام ، ومن ذاهب الى أن التناسخ ينتهي عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال .

ومنهم من قال : انها متى فارقت الجسد عادت الى تجردها من المادة ، حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها .

ومنهم من رأى انها تتعلق بأجسام اثيرية الطف من هذه الأجسام المرئية . وكان اختلاف المذاهب فى كنه السعادة والشقاء الأخرويين ، وفيما هو متاع الحياة الآخرة ، وفى الوسائل التى تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم . وتضارب آراء الأمم فيه ، قديما وحديثا ، مما لا تكاد تحصي وجوهه .

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة ، المنبث فى جميع الأنفس ، عالمها وجاهلها ، وحشيها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ، لا يمكن أن يعد ضلة عقلية ، أو نزعة وهمية ، وانما هو الا لهامات (٢)

---

(١) نظرية قديمة ، قال بها فيثاغورس ، أخذا عن الفلسفة الهندية ، وهى تعنى انتقال النفس بعد الموت الى جسم آخر ، سواء أكان نباتا أو حيوانا أو انسانا ، ومن المتصوفة من يرى تقسيم التناسخ بحسب ماتنتقل اليه النفس ، فاذا انتقلت من انسان الى انسان سمى « نسخا »، واذا انتقلت من انسان الى حيوان سمى « مسخا » ، واذا انتقلت من انسان الى نبات سمى « فسخا » ، واذا انتقلت من انسان الى جماد سمى « رسخا » ... أنظر (المعجم الفلسفي) للدكتور مراد وهبة (وآخرين) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م مادة « تناسخ » .

(٢) المراد هنا « بالالهامات » : الشعور العام الموجود من أصل الفطرة ، وليس « الالهامات » بمعنى مايقابل « المعقولات » وسيأتى الحديث عن هذا المعنى الاخير فيما بعد .

التى اختص بها هذا النوع ، كما ألهم الانسان ان عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا .

وان شذ افراد منه ، ذهبوا الى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للارشاد فى عمل ما ، أو الى انه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد ، ولا الفكر أن يصل الى مجهول ، بل قالوا ان لا وجود للعالم الا فى اختراع الخيال ، وأنهم شاكون حتى فى أنهم شاكون (١) .

ولم يطعن شذوذ هؤلاء فى صحة الالهام العام المشعر لسائر أفراد النوع ان الفكر والعقل هما ركن الحياة وأس البقاء الى الأجل المحدود .

كذلك قد ألهمت العقول واشعرت النفوس ان هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان فى الوجود ، بل الانسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر وان لم يدرك كنهه .

ذلك الهام عقلى يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء ، يشعر كل نفس انها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية ، من طرق غير محصورة ، شيقة الى لذائذ غير محدودة ، ولا واقفة عند غاية ، مهيأة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات ، معرضة لآلام من الشهوات ، ونزعات الأهواء ، ونزوات الأمراض على الأجساد ، ومصارعة الأجواء والحاجات ، وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد ولا تنتهى عند حد . الهام يستلفتها بعد هذا الشعور الى أن واهب الوجود للأنواع

---

(١) الاشارة الى مذهب « اللاأدرية » الذين ينكرون قيمة العقل وقدرته على المعرفة .

انما قدر الاستعداد بقدر الحاجة فى البقاء ، ولم يعهد فى تصرفه العبث والكيل الجزاف ، فما كان استعداده لقبول مالا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات لا يصح أن يكون بقــــاؤه قاصرا على أيام أو سنين معدودات .

شعور يهيج بالأرواح الى تحسس هذا البقاء الأبدى ، وما عسى أن تكون عليـــــه متى وصلت اليه ، وكيف الاهتداء ، وأين السبيل وقد غاب المطـــــلوب وأعــوز الدليل . شعورنا بالحاجة الى استعمال عقولنــــا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الأقوام ، بل لزمتنا الحــــــاجة الى التعليم والارشاد ، وقضاء الأزمنة والاعصار فى تقويم الأنظار ، وتعديل الأفكار ، واصلاح الوجدان ، وتثقيف الأذهان ، ولا نزال الى الآن من هم هذه الحياة الدنيا فى اضطراب، لا ندرى متى نخلص منه ، وفى شوق الى طمأنينة لا نعلم متى ننتهى اليها .

هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة ، فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب ؟ هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها الى الغائب ؟ وهل فى طرق الفكر ما يوصل كل أحد الى معرفة ما قدر له فى حياة يشعر بهــــا ، وبأن لا مندوحة عن القــدوم عليها ، ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ الى تفصيل ما أعد له فيها ، والشئون التى لابد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه . أو الى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشئون ؟؟ ، هل فى أساليب النظر ما يأخذ بك الى اليقين بمناطها من الاعتقـــــادات والأعمال ، وذلك

الـكون مجهول لديك ، وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبة اليك ؟!! .

كلا ... فان الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامى المشاعر ، ولا اشتراك بينهما الا فيك أنت فالنظر فى المعلومات الحاضرة لا يوصل الى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة .

أفليس من حكمة الصانع الحكيم — الذى أقام أمر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليم ، الذى خلق الانسان وعلمه البيان ، علمه الـكلام للتفاهم ، والـكتاب للتراسل — أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها ، بمحض فضله ، بعض من يصطفيه من خلقه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، يميزهم بالفطر السليمة ، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره ، مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته ، فيشرفون على الغيب باذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين ، نهاية الشاهد وبداية الغائب ، فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها ، ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفى على العقول من شئون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه ، وما قدر أن يكون له مدخل فى سعادتهم الأخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لابد لهم من علمه ، معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول افهامهم ، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة ، تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال

ما هو مناط سعادتهم وشقائهم فى ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله ، اللاحق علمه بأعماق ضمائرهم فى اجماله . ويدخل فى ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الآعمال ، ظاهرة وباطنة ، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات ، حتى تقوم بهم الحجة ، ويتم الاقناع بصدق الرسالة ، فيكونون بذلك رسلا من لدنه الى خلقه مبشرين ومنذرين .

لا ريب أن الذى أحسن كل شىء خلقه ، وابدع فى كل كائن صنعه ، وجاد على كل حى بما اليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا جليلا من خلقه ، يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه ، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره ، أن ينقذه من حيرته ، ويخلصه من التخبط فى أهم حياتيه ، والضلال فى أفضل حاليه .

يقول قائل : ولم لم يودع فى الغرائز ما تحتاج اليه من العلم ؟ ، ولم يضع فيها الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية فى الحياة الآخرة ؟ وما هذا النحو من عجائب الرحمة فى الهداية والتعليم ، وهو قول يصدر عن شطط العقل ، والغفلة عن موضوع البحث ، وهو النوع الانسانى ، ذلك النوع على ما به ، وما دخل فى تقويم جوهره من الروح المفكر ، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف فى مراتب الاستعداد باختلاف أفراده ، وأن لا يكون كل فرد منه مستعدا لكل حال بطبعه ، وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال ، فلو الهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع ، بل كان اما حيوانا آخر كالنحل

والنمل أو ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الأرض .

المسلك الثاني : فى بيان الحاجة الى الرسالة يؤخذ من طبيعة الانسان نفسه : أرتنا الأيام ، غابرها وحاضرها ، أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر ، وينقطع الى بعض الغابات أو الى رءوس الجبال ، ويستأنس الى الوحش ، ويعيش عيش الأوابد من الحيوان . يتغذى بالأعشاب وجذور النبات ، ويأوى الى الكهوف والمغاور ، ويتقى بعض العوادى عليه بالصخور والأشجار ، ويكتفى من الثياب بما يخصف (١) من ورق الشجر أو جلود الهالك من حيوان البر ، ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا .

لكن مثل هذا مثل النحلة تنفرد عن الدبر (١) وتعيش عيشة لا تتفق مع ما قدر لنوعها ، وانما الانسان نوع من تلك الأنواع التى غرز فى طبعها أن تعيش مجتمعة ، وان تعددت فيها الجماعات ، على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع فى بقائه ، وللمجموع من العمل ما لا غنى للواحد عنه فى نمائه وبقائه ، وأودع فى كل شخص من أشخاصها شعور ما بحاجة الى سائر أفراد الجماعة التى يشملها أسم واحد ، وتاريخ وجود الانسان شاهد بذلك ، فلا حاجة الى الاطالة فى بيانه ، وكفاكَ من الدليل على أن الانسان لا يعيش الا فى جملة ، ما وهبه من قوة النطق ، فلم يخلق لسانه مستعدا لتصوير المعانى فى الألفاظ وتأليف العبارات الا لاشتداد الحاجة به الى

---

(١) يلصق ويطبق .

(٢) الدبر ، بفتح الدال المشددة وسكون الباء : جماعة النحل والزنابير .

التفاهم وليس الاضطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر الا الشهادة بأن لا غنى لأحدهم عن الآخر .

حاجة كل فرد من الجماعة الى سائرها مما لا يشتبه فيه ، وكلما كثرت مطالب الشخص فى معيشته ازدادت به الحاجة الى الأيدى العاملة ، فتمتد الحاجة ، وعلى أثرها الصلة ، من الأصل الى العشيرة ، ثم الى الأمة ، والى النوع بأسره ، وأيامنا هذه شاهدة على ان الصلة التابعة للحاجة قد تعم النوع ، كما لا يخفى هذه الحاجة — خصوصا فى الأمة التى حققت عنوانها لها — صلات وعلائق ميزتها عمن سواها ، حاجة فى البقاء ، حاجة فى التمتع بمزايا الحياة ، حاجة فى جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع .

لو جرى أمر الانسان على أساليب الخلقة فى غيره لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده ، عامل يشعر كل نفس ان بقاءها مرتبط ببقاء الكل .

فالكل منها بمنزلة بعض قواها ، المسخرة لمنافعها ، ودرء مضارها ، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة الى القلوب ، هى الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر ، الناهض بكل منهما للمدافعة عنه فى حالة الخطر ، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظا لنظام الأمم وروحا لبقائها ، وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون ، فان المحبة حاجة لنفسكَ الى من تحب ، أو ما تحب ، فان اشتدت كانت ولعا وعشقا .

لكن ... كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين اذا كانت الحاجة الى ذات المحبوب أو ما هو فيها لا يفارقها ، ولا يكون هذا النوع منها فى الانسان

الا اذا كان منشؤه امرا فى روح المحبوب وشمائله التى لا تفارق ذاته ، حتى تكون لذة الوصول فى نفس الاتصال لا فى عارض يتبعه ، فاذا عرض التبادل والتعاوض ، ولوحظ فى العلاقة بينهما ، تحولت المحبة الى رغبة فى الانتفاع بالعوض ، وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع ، وقام بين الشخصين مقام المحبة اما سلطان القوة أو ذلة المخافة أو الدهان والخديعة من الجانبين .

يحب الكلب سيده ويخلص له ، ويدافع عنه دفاع المستميت ، لما يرى انه مصدر الاحسان اليه فى سداد عوزه ، فصورة شبعه وريه وحمايته مقرونة فى شعوره بصورة من يكفلهـــا له ، فهو يتوقع فقدها بفقده ، فيحرص عليه حرصه على حياته ، ولو أنه انتقل من حوزته الى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضا لخطر ما عادت اليه تلك الصورة يصل بعضها بعضا ، واندفع الى خلاصة بما تمكنه القوة ، ذلك ان الالهام الذى هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب ، فوجدانه يتردد بين الاحسان ومصدره ، وليس له وراءهما مذهب ، فحاجته فى سد عوزه هى حاجته الى القائم بأمره ، فيحبه محبته لنفسه ، ولا يبخس منها ثوب التعاوض فى الخدمة .

أما الانسان ـ وما ادراك ما هو ـ فليس أمره على ذلك ، ليس ممن يلهم ولا يتعلم ، ولا ممن يشعر ولا يتفكر ، بل كان كماله النوعى فى اطلاق مداركه عن القيد ، ومطالبه عن النهايات ، وتسليمه على صغره الى العالم الأكبر على جلالته وعظمه ، يصـــارعه بعوامله ، وهى غير محصورة ، حتى يعتصر منه منافعـــه ، وهى غير محدودة ، وابداعه من قوى الادراك والعمل ما يعينه

على المغالبة ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه ، ويتبع ذلك أن يكون له فى كل كائن مما يصل اليه لذة ، وبجوار كل لذة ألم أو مخافة ، فلا تنتهى رغائبه الى غاية ، ولا تقف مخاوفه عند نهاية : (ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا (١)) .

تفاوتت افراده فى مواهب الفهم ، وفى قوى العمل ، وفى الهمة والعزم ، فمنهم المقصر ضعفا أو كسلا ، المتطاول فى الرغبة شهوة وطمعا ، يرى فى أخيه أنه العون له على ما يريد من شئون وجوده ، لكنه يذهب من ذلك الى تخيل اللذة فى الاستئثار بجميع ما فى يده ، ولا يقنع بمعاوضته فى ثمرة من ثمار عمله ، وقد يجد اللذة فى أن يتمتع ولا يعمل ، ويرى الخير فى أن يقيم مقام العمل اعمال الفكر فى استنباط ضروب الحيل ، ليتمتع وان لم ينفع ، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لا ضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته ، ولا يبالى بارساله الى عالم العدم بعد سلبه ، فكلما حثه الذكر والخيال الى دفع مخافة ، أو الوصول الى لذيذ ، فتح له الفكر بابا من الحيلة ، أو هيأ وسيلة لاستعمال القوة ، فقام التناهب مقام التواهب ، وحل الشقاق محل الوفاق ، وصار الضابط لسيرة الانسان : اما الحيلة واما القهر .

---

(١) المعارج : ٢٠ .

اللــذة الروحانيــة

هل وقف الهوى بالانسان عند التنافس فى اللذائذ الجسدانية ، وتجالد أفراده طمعا فى وصول كل الى ما يظنه غاية مطلبه ، وان لم تكن له غاية ؟؟ .

كلا .. ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية ، وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له فى نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما ، حسبما يمتد اليه نظره ، وقد بلغت هذه الشهوة حداً من الأنفس كادت تتغلب على جميع الشهوات ، وأخذت لذة الوصول اليهــا من الأرواح مكانا كاد لا تصعد اليه سائر اللذات ، وهى من أفضل العوامل فى احراز الفضائل ، وتمكين الصلات بين الأفراد والأمم ، لو صرفت فيما سيقت لأجله ، ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للأسباب التى أشرنا اليها من التفــــاوت فى مراتب الادراك والهمة والعزيمة ، حتى خيل للـكثير من العقلاء أن يسعى الى اعلاء منزلته فى القلوب باخافة الآمن وازعاج الساكن واشعار القلوب رهبة المخافة لا تهيب الحرمة .

هل يمكن مع هذا ان يستقيم أمر جماعة بنى نظامهم وعلق بقاؤهم فى الحياة على تعــــاونهم ، ورفد بعضهم بعضا فى الأعمال ؟ أو لا تـكون هذه الأفاعيل السابق

ذكرها ، سببا فى تفانيهم ؟ لا ريب أن البقاء على تلك الأحوال من ضروب المحال ، فلابد للنوع الانسانى فى حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها .

لجأ بعض أهل البصيرة فى ازمنة مختلفة الى العدل ، وظنوا ، كما ظن بعض العارفين ونطق نه فى كلمة جليلة ، ان العدل نائب المحبة .

نعم .. لا يخلو القول من حكمة ، ولكن .. من الذى يضع قواعد العدل ، ويحمل الكافة على رعايتها ؟؟ .. قيل : ذلك هو العقل ، فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء ، كذلك تكون وسائل السعادة، وفيهامستقر السكينة ، وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل وأصالة الحكم يذهب بكثير من الناس الى ما وراء حجب الشهوات ، وتعلو بهم فوق ما تخيله المخاوف ، فيعرفون لكل حق حرمته ، ويميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى ، وقد جاء منهم أفراد فى كل امة ، وضعوا أصول الفضيلة ، وكشفوا وجوه الرذيلة ، وقسموا أعمال الانسان الى ما تحضر لذته وتسوء عاقبته ، وهو ما يجب اجتنابه ، والى ما قد يشق احتماله ولكن تسر مغبته ، وهو ما يجب الأخذ به . ومنهم من انفق فى الدعوة الى رأيه نفسه وماله ، وقضى شهيد اخلاصه فى دعوة قومه الى ما يحفظ نظامهم ، فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل ، وعلى أهل السلطان ان يحملوا الكافة على رعايتها ، وبذلك يستقيم أمر الناس .

هذا قول لا يجافى الحق ظاهره ، ولكن .. هل سمع فى سيرة الانسان ، وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم لرأى العاقل لمجرد أنه

الصواب ؟ وهل كفى فى اقناع جماعة منه ، كشعب او أمة ، قول عاقلهم : أنهم مخطئون ، وأن الصواب فيما يدعوهم اليه ، وان أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء ؟؟ ..

كلا .. لم يعرف ذلك في تاريخ الانسان ، ولا هو مما ينطبق على سنته . فقد تقـــدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس فى الادراك ، وهم مع ذلك يدعون المساواة فى العقول والتقارب فى الأصول ، ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل الا كما يعــــرف من أمر الجاهل ، ومن لم يكن فى مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل ، فمجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعا، ولا يرد طمأنينة ، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم انه أرفع من واضعها ، فيذهب بالناس مذهب شـــهواته ، فتذهب حرمتها ، ويتهدم بناؤها ، ويفقد ما قصد بوضعها .

الحاجة الأخروية

اضف الى ما سبق من لوازم نزعات الفكر ونزعات الأهواء شعورا هو الصق بالفريزة البشرية ، وأشد لزوما لها ، كل انسان ، مهما علا فكره وقوى عقله ، او ضعفت فطنته وانحطت فطرته ، يجد من نفسه انه مغلوب لقوة أرفع من قوته وقوة ما انس منه الغلبة عليه مما حوله ، وانه محكوم بارادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم فى وجوه قد لا يعرفها معرفة العارفين ، ولا تتطرق اليها ارادة المختارين . تشعر كل نفس انها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى ، فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى ، ولا سبيل لها الا الطريق التى حددت لنوعها ؛ وهى طريق النظر ، فذهب كل فى طلبها وراء رائد الفكر ، فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات ، لكثرة نفعها أو شدة ضررها ، ومنهم من تمثلت له فى بعض الكواكب ، لظهور اثرها ، ومنهم من حجبته الأشجار والأحجار ، لاعتبارات له فيها ، ومنهم من تبدت له آثار قوى مختلفة فى أنواع متفرقة ، تتماثل فى أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الأنواع ، فجعل لكل نوع الها .

ولكن ... كلما رق الوجدان ، ولطفت الأذهان ،

ونفذت البصائر ، ارتفع الفكر ، وجلت النتائج ، فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الى معرفة هـذه القدرة الباهرة ، واهتدى الى انها قدرة واجب الوجود، غير أن من اسرار الجبروت ما غمض عليه ، فلم يسلم من الخبط فيه ، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة فى قومه ما يحملهم على الاهتـداء بهـديه ، فبقى الخلاف دائما والرشد ضائعا .

اتفق الناس فى الاذعان لما فاق قـدرهم وعلا متناول استطاعتهم ، ولكنهم اختلفوا فى فهم ما تلجئهم الفطرة الى الاذعان له ، اختلافا كان أشد أثرا فى التقـاطع بينهم ، وأثارة أعاصير الشقاء فيهم من اختلافهم فى فهم النافع والضار ، لغلبة الشهوات عليهم .

ان كان الانسان قد فطر على أن يعيش فى جملة ، ولم يمنح من تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلا من الالهام الهادى الى ما يلزم لذلك ، وانما ترك الى فكره يتصرف به على نحو ما سبق ، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها الى معرفته، ولم يفض عليـه مع ذلك الشعور عرفانه بذات ذلك القاهرولا صفاته ، وانما ألقى به فى مطارح النظر ، تحمله الأفكار فى مجاريها ، وترمى به الى حيث يدرى ولا يدرى ، وفى كل ذلك الويل على جامعته ، والخطر على وجوده ، فهل منى هذا النوع بالنقص ، ورزىء بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها فى منازل الوجود ؟؟ .. نعم .. هو كذلك ، لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه .

الرسل والرسالة

الانسان عجيب فى شأنه يصعد بقوة عقله الى أعلى مراتب الملكوت ، ويطـــــاول بفكره أرفع معـالم الجبروت ، ويسامى بقوته ما يعظم أن يسامى من قوى الكون الأعظم ، ثم يصغر ويتضاءل وينحط الى أدنى درك فى الاستكانة والخضوع متى عرض له امر ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ، لسر عرفه المستبصرون، واستشعرته نفوس الناس أجمعين .

من ذلك الضعف قيد الى هداه ، ومن تلك الضعة اخذ بيده الى مشرق سعادته . اكمل الواهب الجـواد لجملته ما اقتضت حكمته فى تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أو ينقص من أفراده ، وكما جاد على كل شخص العقل المصرف للحواس ، لينظر فى طلب اللقمة وستر العورة والتوقى من الحر والبرد ، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء وآثر فى الوقاية من غوائل الشقاء واحفظ لنظـــام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالاجماع .

من عليه بالنائب الحقيقى عن المحبة ، بل الراجع بها الى النفوس التى أقفرت منها ، لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد ، غير انه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه ، وهى جهة الخضوع والاستكانة ، فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين ، وميزهم من بينها بخصائص من انفسهم ، لا يشركهم فيها سواهم ، وأيد ذلك ، زيادة فى الاقناع ، بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطـــرق على سوابق العقول ، فيستخذى الطامح ، ويذل الجامح ، ويصدم

بها عقل العاقل فيرجع الى رشده، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه .

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته ، فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الاذعان له ، ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك ، والسلطان والصعلوك ، والعاقل والجاهل ، والمفضول والفاضل ، فيكون الاذعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى النظرى .

يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وما اراد أن يعلموه من شئون ذاته وكمال صفاته ، وأولئك هم الأنبياء المرسلون .

فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان ، ومن أهم حاجاته فى بقائه ، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص ، نعمة أتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وسنتكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد .

***

امكان الوحى

الكلام فى امكان الوحى يأتى بعد تعريفه ، لتصوير المعنى الذى يراد منه ، ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر ، فيفهم معنى المصدر نفسه ، ولا تعنينا ما تثيره الألفاظ فى الأذهان ، ولنذكر من اللغة ما يناسبه :

يقال : وحيت اليه واوحيت ، اذا كلمته بما تخفيه عن غيره ، والوحى مصدر من ذلك . والمكتوب والرسالة وكل ما القيته الى غيرك ليعلمه . ثم غلب فيما يلقى الى

الأنبياء من قبل الله : وقيل الوحى اعـلام فى خفاء ، ويطلق ويراد به الوحى .

وقد عرفوه شرعا : انه كلام الله تعالى المنزل على نبى من أنبيائه .

أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه ، مع اليقين بأنه من الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول (١) بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت .

ويفرق بينه وبين الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى ما يطلب على غير شعور منها من اين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور (٢) .

أما امكان حدوث هذا النوع من العرفان (الوحى) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك ، وسهولة فهمه عند العقل ، فلا أراه مما يصعب ادراكه الا على من لا يريد أن يدرك ، ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم .

نعم .. يوجد فى كل أمة ، وفى كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص فى العلم الى ما وراء سواحل اليقين ، فيسقطون فى غمرات من الشك فى كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس ، بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها ، كما سبقت الاشارة ، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا الى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان ، فينسون العقل وشئونه ، وسره ومكنونه ،

---

(١) اى ماهو بواسطة .

(٢) أى ان الفرق بين الوحى والالهام ان متلقى الوحى يستيقن أنه من الله ، وليس ذلك شرطا فى متلقى الالهام .

ويجـــــدون في ذلك لذة الاطلاق عن قيود الأوامر والنواهى ، بل عن مجـــالس الحشمة التى تضمهم الى الالتزام بما يليق ، وتحجزهم عن مقارفة ما لا يليق ، كما هو حال غير الانسان من الحيوان ، فاذا عرض عليهم شيء من الـكلام في النبوات والأديان ، وهم من أنفسهم هام بالاصفاء ، دافعوا بمـــا أوتوا من الاختيار فى النظر ، وانصرفوا عنه ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم حـــذر أن يخالط الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيـــــدة ، وتتبعها الشريعة ، فيحرموا لذة ما ذاقـــوا ، وهو مرض فى الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم ، ان شاء الله .

قلت : اى استحالة في الوحى ؟ وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره ، من غير فكر ولا ترتيب مقدمات ، مع العلم ان ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر ، متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة .

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضا ، وان الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى الا على وجه من الاجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط ، بلّ لابد معه من التفاوت فى الفطر التى لا مدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه ، ولا شبهة فى أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهى عند من هو أرقى منه ، ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك الى ما لا يحصره العدد ، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس من يرى البعيد عن صغارها قريبا فيسعى اليه ، ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ما صار اليه كأنه من المعروف الذى لا ينازع ، والظاهر الذى لا يجاحد ، فاذا أنكر منكر ثاروا عليه ثورتهم فى بادىء الأمر على من دعاهم اليه ، ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهرا فى كل أمة الى اليوم .

فاذا سلم — ولا محيض عن التسليم — بما أسلفنا من المقدمات ، فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها ، عند الوصول اليهـا ، ان لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر ، بأصل الفطرة ، ما تستعد به ، من محض الفيض الالهى ، لأن تتصل بالأفق الأعلى ، وتنتهى من الانسانية الى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل بغيرها الى تعقله أو تحسسه بعصى الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه احدنا عن أساتذة التعاليم ، ثم تصدر عن كل ذلك العلم الى تعليم ما علمت ودعوة الناس الى ما حملت على ابلاغه اليهم ، وأن يكون ذلك سنة الله فى كل أمة وفى كل زمان على حسب الحاجة .

يظهر برحمته من يختصه بعنـايته ، ليفى للاجتماع بما يضطر اليه من مصلحة ، الى أن يبلغ النوع الانسانى أشده ، وتكون الأعلام التى نصبها لهدايته وسعادته كافية فى ارشاده ، فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة ، كمـا سنأتى عليه فى رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم .

الملائكة

اما وجود بعض الأرواح العالية ، وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية فمما لا استحالة فيه بعدما عرفنا من انفسنا وارشدنا اليه العلم ، قديمه وحديثه ، اشتمال الوجود على ما هو الطف من المادة ، وان غيب عنا ، فأى مانع من ان يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقا لشيء من العلم الالهى وان يكون لنفوس الأنبياء اشراف عليه ، فاذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الاذعان بصحته .

اما تمثل الصوت ، وأشباح الأرواح فى حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الانبياء ما لا يبعد عنه فى بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم ، فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم ويصل الى درجة المحسوس ، فيصدق المريض فى قوله أنه يرى ويسمع ، بل يجالد ويصارع ، ولا شيء من ذلك فى الحقيقة بواقع ، فان جاز التمثل فى الصور المعقولة ، ولا منشأ لها الا فى النفس ، وان ذلك يكون عند عروض عارض على المخ ، فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية ؟ وأن يكون ذلك لها عندما تنتزع عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس ؟

وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجة ، لاختصاص مزاجهم بما لا يوجـــد فى مزاج غيرهم .

وغاية ما يلزم عنه ان يكون لعلاقة ارواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله ، بل يتحتم ، لأن شأنهم فى الناس أيضا غير الشئون المألوفة ، وهذه المغايرة ، من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم ، والدليل على سلامة شهودهم ، وصحة ما يحدثون عنه .

ان امراض القلوب تشـــــفي بدوائهم ، وان ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقـــوة فى أممهم التى تأخذ بمقالهم ، ومن المنكر فى البديهة أن يصدر الصحيح من معتل ويستقيم النظام بمختل .

أما ارباب النفوس العالية والعقـــول السامية من العـــرفاء ، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولـكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الانس بمـــا يقارب تلك الحال فى النوع أو الجنس ، لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال (١) لا تنـــــكر عليهم ، لتحقق حقائقها فى الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يحدث به عن الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف .

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح

---

(١) اشتهر بتحديده والحديث عنه أفلاطون ، وهو عنده مبدأ الوجود والمعرفة كليهما .

منهم ، وسلامة اعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقـــل الصحيح أو يمجه الذوق السليم ، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم المتلألىء فى بصائرهم الى دعوة من يحف بهم الى ما فيه خير العامة وترويح قلوب الخاصة ، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ، ويسوء مآلهم ومآل من غرروا به ، ولا يكون لهم الا سوء الأثر فى تضليل العقول وفســـاد الأخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، الا ان يتداركهم الله بلطفه ، فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بامكان ما أنبئوا به بل وبوقوعه الا حجاب من العادة ، وكثيرا ما حجب العقول حتى عن ادراك أمور معتادة .

وقوع الوحى والرسالة

الدليل على رسالة نبى وصدقه فيما يحكى عن ربه ، ظاهر للشاهد الذى برىء حاله ، ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ، ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان ، كما سلف فى الوجه الأول من الكلام على الرسالة .

أما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر ، وهو كما تبين فى علم آخر : رواية خبر عن شهود من جمـاعة يستحيل تواطؤهم على الكذب (عادة) ، وآيته قهـر النفس على اليقين بما جاء فيه ، كالاخبار بوجود « مكة » أو بأن للصين عاصمة تسمى « بكين » . وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة (١) ،

(١) مثل أن لايكون الخبر ممتنعا عقلا ، وأن يكون المخبر به محسوسا .

وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ، ومرجع كل ذلك الى العدد وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر .

لا نزاع بين العقلاء فى ان هـذا النوع من الأخبار يحصل اليقين بالمخبر به ، وانما النزاع فى اعتبارات تتعلق به ، ومن الأنبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كابراهيم وموسى وعيسى ، ومما جاء به الخبر انهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقـوى سلطانا ، ولا بالأكثر مالا ، ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا اليه ، وغاية الأمر انهم لم يكونوا من الأدنين الذين تعافهم النفوس ، وتنبو عنهم الأنظار ، ومع ذلك ، واستحكام السـلطان لغيرهم ، ووفرة المـال لديه واستعلائه عليهم بما كسب من العلم ، قاموا بدعوة الى الله على رغم الملوك واجنادهم ، وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم ، وادعوا انهم يبلغـون عن خالق السماوات والأرض ما أراد شرعه للناس ، وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة ، ثم ثبتت فى الـكون شرائعهم ثبات الغريزة فى الفطرة ، وكان الخير لأممهم فى اتباع ما جاءوا به .

حالفتهم القوة واحتضنتهم السـعادة ما كانوا قائمين عليها ، ورزاهم الضعف وغالهم الشـقاء ما انحرفوا عنها ، وخلطوا فيها ، فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدى لا يصح معه ، فى العقل ، أن يكونوا كاذبين فى حدبثهم عن الله ، ولا فى دعواهم أنه كان يوحى اليهم ما شرعوا للناس .

على ان من لا يعتقد ما يقول لا يبقى لمقاله أثر فى العقول . والباطل لا بقاء له الا فى الغفلة عنه ، كالنبات

الخبيث فى الأرض الطيبة يلبث باهمالها ويلمو باغفالها فاذا لامستها عنـــاية الزراع غلبه الخصب وذهب به الزكاء .

ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الأنبياء قامت فى العالم الانسانى ما شاء الله مما قدر لهـــا ، مقام سائر قواه ، مع كثرة المعارضين ، وقوة سلطان المغالبين، فلا يمكن أن يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة ، وكلامنا هذا فى جوهرها الذى يلوح دائما فى خلال ما ألحق بها المبتدعون ، أما بقية الرسل ممن يجب علينا الايمان بهم فيكفى فى اثبات نبوتهم اثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقد أخبرنا برسالتهم ، وهو الصادق فيما بلغ به . وسنأتى على الـكلام فى رسالة نبينا محمد ، صلى الله عليـــه وسلم ، فى باب على حدته ان شاء الله .

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين مما تقدم فى حاجة العالم الانسانى الى الرسل ، انهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص ، وان بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية ، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ، ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه ، ولـكنها حاجة روحية ، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه الى الروح ، وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة ، أو تقويم ملكتها ، أو ايداعها ما فيه سعادتها فى الحياتين ، أما تفصيل طرق المعيشة والحذق فى وجوه الكسب وتطاول شهوات العقل الى درك ما أعد للوصول اليه من أسرار العلم ، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه ، الا من وجهة

المظلة العامة ، والارشاد الى الاعتدال فيه ، وتقرير ان شرط ذلك كله ان لا يحدث ريبا فى الاعتقاد بأن للكون الها واحدا قادرا عالما حكيما ، متصفا بما أوجب الدليل أن يتصف به ، وباستواء نسبة الكائنات اليه فى أنها مخلوقة له ، وصنع قدرته ، وانما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال ، وشرطه أن لا ينال شىء من تلك الأعمال السابقة أحدا من الناس بشر فى نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ما حدد فى شريعتها .

***

يرشدون العقل الى معرفة الله ، وما يعرف من صفاته ، ويبينون الحد الذى يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان ، على وجه لا يشق عليه الاطمئنان اليه ، ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة .

يجمعون كلمة الحق على اله واحد ، لا فرقة معه ، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده ، وينهضون نفوسهم الى التعلق به فى جميع الأعمال والمعاملات ، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات ، تذكرة لمن ينسى ، وتزكية مستمرة لمن يخشى ، تقوى ما ضعف منهم ، وتزيد المستيقن يقينا .

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم ، فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ، ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ، ولا تفوت به المنافع الخاصة ، يعودون بالناس الى الألفة ، ويكشفون لهم سر المحبة ، ويستلفتونهم الى أن فيها انتظام شمل

الجماعة ، ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها قلوبهم ، ويشعروها أفئدتهم ، يعلمونهم لذلك أن يرعى كل حق الآخر وان كان لا يغفل حقه ، وان لا يتجاوز في الطلب حده ، وان يعين قويهم ضعيفهم ، ويمد غنيهم فقيرهم ، ويهدى راشدهم ضالهم ، ويعلم عالمهم جاهلهم .

يضعون لهم ، بأمر الله ، حدودا عامة ، يسهل عليهم أن يردوا اليها أعمالهم ، كاحترام الدماء البشرية الا بحق ، مع بيان الحق الذى يبيح تناوله ، واحترام الأعراض ، مع بيان ما يباح وما يحرم من الابضاع ، ويشرعون لهم مع ذلك ان يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة ، والوفاء بالعقود ، والمحافظة على العهود ، والرحمة بالضعفاء ، والاقدام على نصيحة الأقوياء ، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء .

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية الى طلب الرغائب السامية ، آخذين فى ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب ، والانذار والتبشير ، حسبما أمرهم الله جل شأنه .

يفصلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم ، وما يعرضهم لسخطه عليهم ، ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة ، وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده ، وأخذ بأوامره ، وتجنب الوقوع فى محاظيره . يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به ، مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده .

بهذا تطمئن النفوس ، وتثلج الصدور ، ويعتصم

المرزوء بالصبر انتظارا لجزيل الأجر ، وا ارضاء لمن بيده الأمر ، وبهذا ينحل أعظم مشكل فى الاجتماع الانسانى لا يزال العقلاء يجهدون انفسهم في حله الى اليوم .

***

ليس من وظائف الرسل ما هو من عمـــل المدرسين ومعلمى الصناعات ، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيان ما اختلف من حركاتها ، ولا ما استكن من طبقات الأرض، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج اليه النباتات فى نموها ، ولا ما تفتقر اليه الحيوانات فى بقاء اشخاصها وانواعها ، وغير ذلك مما وضعت له العلوم ، وتسابقت فى الوصول الى دقائقه الفهـــــوم ، فان ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة ، هدى الله اليه البشر بما أودع فيهم من الآدراك ، يزيد فى سعادة المحصلين ، ويقضى فيه بالنكد على المقصرين ، ولـكن كانت سنة الله فى ذلك أن يتبع طريقة التـــدرج فى الـكمال ، وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمـــل على الاجمال بالسعى فيه ، وما يكفل التزامه بالوصول الى ما أعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء .

اما ما ورد فى كلام الأنبياء من الاشارة الى شيء مما ذكرنا فى أحوال الأفلاك او هيئة الأرض ، فانما يقصـــد منه النظر الى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعة ، او توجيه الفكر الى الغوص لادراك أسراره وبدائعه ، ولغتهم ، عليهم الصلاة ، فى مخاطبة اممهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون ، والاضاعت الحكمة فى ارسالهم ، ولهذا قد يأتى التعبير الذى سيق الى العامة بما يحتاج

الى التأويل والتفسير عند الخاصة ، وكذلك ما وجه الى الخاصة يحتـــاج الى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة ، وهذا القسم أقل ما ورد فى كلامهم .

***

على كل حال لا يجوز أن يقـــام الدين حاجزا بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الامكان ، بل يجب أن يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان ، مطـــالبا لها باحترام البرهان ، فارضا عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد فى معرفة ما بين يديها من العوالم ، ولكن مع التزام القصد والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد . ومن قال ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين .

اعتراض مشهور

قال قائل : ان كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر ، وكمالا لنظام اجتماعهم ، وطريقـــا لسعادتهم الدنيوية والاخروية ، فما بالهم لم يزالوا أشقياء ، عن السعادة بعـــداء ، يتخـالفون ولا يتفقون ، يتقاتلون ولا يتناصرون ، يتناهبون ولا يتناصفون ، كل يستعد للوثبة ولا ينتظر الا مجيء النوبة ، حشو جلودهم الظلم وملء قلوبهم الطمع ، عد اهل كل ذى دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه ، واتخـــذوا منه سببا جديدا للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصـــالح والمنافع ، بل اهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم ،

وتختلف مذاهبهم فى فهمه ، وتتفـــارق عقولهم فى عقائدهم ، ويثور بينهم غبار الشر ، وتتشبث أهواؤهم بالفتن ، فيسفكون دماءهم ويخربون ديارهم ، الى أن يغلب قــويهم ضعيفهم ، فيستقر الأمر للقــوة لا للحق والدين .. فها هو الدين الذى تقول انه جامع الكلمة ورسول المحبة كان سببا فى الشقاق ، ومضرما للضغينة ، فما هذه الدعوى وما هذا الأثر ؟؟ .

نقول فى جوابه نعم .. كل ذلك قد كان ، ولكن بعد زمن الأنبياء وانقضاء عهدهم ، ووقوع الدين فى أيدى من لا يفهمه ، أو يفهمه ويغلو فيه ، ولكن لم يمتزج حبه بقلبه ، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبياء أنفسهم أو الخيرة من تبعتهم ، والا فقل لنا : اى نبى لم يأت امته بالخير الجم والفيض الأعم ؟ ولم يكن دينه وافيا بجميع ما كانت تمس اليه حاجتها فى أفرادها وجملتها ؟؟ .

اظن انك لا تخالفنا فى أن الاعظم من الناس ، بل الــكل ـ الا قليلا ـ لا يفهمون فلسفة « أفلاطون » ، ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق « أرسطو » ، بل لو عرض اقرب المعقولات الى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتى بها معبر لما ادركوا منها الا خيالا لا أثر له فى تقويم النفس ولا فى اصلاح العمل ، فاعتبر هــذه الطبقات فى حالها التى لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها ، ثم انصب نفسك واعظا بينها فى تخفيف بلاء ساقه النزاع اليها ، فأى الطـــرق اقرب اليك فى مهاجمة شهواتهم وردها الى الاعتدال فى رغائبها .

من البديهي انك لا تجد الطريق الأقرب في بيان مضار

الاسراف فى الرغب وفوائد القصد فى الطلب ، وما ينحو ذلك ، مما لا يصل اليه ارباب العقول السامية الا بطويل النظر ، وانما تجد اقصر الطرق واقومها أن تأتى اليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب ، فتذكره بقدرة الله الذى وهبه ما وهب ، الغالب عليه فى أدنى شئونه اليك ، المحيط بما فى نفسه ، الآخذ بأزمة هممه ، وتسوق اليه من الأمثال فى ذلك ما يقرب الى فهمه ، ثم تروى له ما جاء فى الدين المعتقد به من مواعظ وعبر ، ومن سير السلف فى ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة ، وتنعش روحه بذكر رضا الله اذا استقام ، وسخطه عليه اذا تقحم ، عند ذلك يخشع منه القلب ، وتدمع العين ، ويستخذى الغضب ، وتخمد الشهوة ، والسامع لم يفهم من ذلك كله الا انه يرضى الله وأولياءه اذا أطاع ، ويسخطهم اذا عصى ، ذلك هو المشهود من حال البشر ، غابرهم وحاضرهم ، ومنزه يسم نفسه انه ليس منهم .

كم سمعنا أن عيونا بكت ، وزفرات صعدت ، وقلوبا خشعت لواعظ الدين ؟ لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدى نصاح الأدب وزعماء السياسة ؟! .

متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم ، وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك ؟ هذا أمر لم يعهد فى سير البشر ، ولا ينطبق على فطرهم ، وانما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد ، ولا قيام للأمرين الا بالدين ، فعامل الدين هو أقوى العوامل فى أخلاق العامة ، بل والخاصة وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم .

سوء الاستعمال

قلنا : ان منزلة النبوات من الاجتمـــاع هى منزلة العقل من الشخص ، أو منزلة العـــلم المنصوب على الطريق المسلوك ، بل نصعد الى ما فوق ذلك ونقول : منزلة السمع والبصر .

أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر ؟ وبين الطريق السهلة الســـلوك والمعابر الوعرة ؟ ومع ذلك فقد يسىء البصير استعمال بصره ، فيتردى فى هاوية يهلك فيهـا ، وعيناه سليمتان تلمعان فى وجهه ، يقع ذلك لطيش أو اهمال أو غفلة أو لجاج وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شىء ، ويعلم ذلك الباغى فى رأيه من أهل الشر ، ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ، ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها .

ولكن وقوع هذه الأمثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلط لأجله ، كذلك الرسل ، عليهم السلام ، أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة ، فمن الناس من اهتدى بها فانتهى الى غايات السعادة ، ومنهم من غلط فى فهمها أو انحرف عن هديها فانكب فى مهاوى الشقاء ، فالدين هاد ، والنقص يعرض لمن دعوا الى الاهتــداء به ، ولا يطعن نقصهم فى كماله ، واشتداد حاجتهم اليه (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين (١)) .

الا ان الدين مستقر السكينة ، ولجأ (٢) الطمأنينة ،

---

(١) البقرة : ٢٦ .

(٢) اللجأ مصدر معناه : الحصن والملاذ .

به يرضى كل بما قسم له ، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله ، وبه تخضع النفوس الى أحكام السنن العامة فى الكون ، وبه ينظر الانسان الى من فوقه فى العلم والفضيلة ، والى من دونه فى المال والجاه ، اتباعا لما وردت به الأوامر الالهية .

الدين اشبه بالبواعث الفطرية الالهامية منه بالدواعى الاختيارية . الدين قوة من أعظم قوى البشر ، وانما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى ، وكل ما وجه الى الدين من مثل الاعتراض الذى نحن بصدده فتبعته فى أعناق القائمين عليه ، الناصبين انفسهم منصب الدعوة اليه ، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه ، وما عليهم فى ابلاغ القلوب بغيتها منه الا أن يهتدوا به ويرجعوا به الى أصوله الطاهرة الأولى ، ويضعوا عنه أوزار البدع ، فترجع اليه قوته ، وتظهر للأعمى حكمته .

ربما يقول قائل : ان هذه المقابلة بين العقل والدين تميل الى رأى القائلين باهمال العقل بالمرة فى قضايا الدين ، وبأن أساسه هو التسليم المحض ، وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ الى فهم ما أودعه من معارف وأحكام .

فنقول : لو كان الأمر كما عساه أن يقال ، لما كان الدين علما يهتدى به ، وانما الذى سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل الحيوان فى درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها ، بل لابد معها من السمع لادراك المسموعات مثلا ، كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات ،

والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله ، والاذعان لما تكشف من معتقدات وحدود اعمال . كيف ينكر على العقل حقه فى ذلك ، وهو الذى ينظر فى أدلتها ليصل منهـــا الى معرفتها ، وانها آتية من قبل الله ، وانما على العقل بعد التصديق برسالة نبى أن يصدق بجميع ما جاء به ، وان لم يستطع الوصول الى كنه بعضه ، والنفوذ الى حقيقته ، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى الى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين فى موضوع واحد فى آن واحد ، فان ذلك مما تتنزه النبوات عن ان تأتى به ، فان جاء ما يوهم ظاهره ذلك فى شىء من الوارد فيها ، وجب على العقل أن يعتقـد ان الظـاهر غير مراد ، وله الخيــــار بعد ذلك فى التأويل ، مسترشدا ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه فى كلامه ، وفى التفويض الى الله فى علمه ، وفى سلفنـــا الناجين من اخذ بالأول ومنهم من اخذ بالثانى .

رسالة محمد
صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا ، فى هذه الوريقات ، ان نلم بتاريخ الأمم عامة ، وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمدية ، لنبين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسة الى قارعة تهز عروش الملوك ، وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم ، وتخفض من ابصارهم المعقودة بعنان السماء الى من دونهم من رعاياهم الضعفاء ، والى نار تنقض من سماء الحق على أدم (١) الأنفس البشرية ، لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للمقول ، وصيحة فصحى تزعج الغافلين وترجع بألباب الذاهلين ، وتنبه المرءوسين الى انهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين ، والدهاة الضالين ، والقادة الفارين ، وبالجملة تؤب بهم الى رشد يقيم الانسان على الطريق التى سنها الله له : « انا هديناه السبيل (٢) » ليبلغ بسلوكها كماله ، ويصل على نهجها الى ما أعد فى الدارين له .

ولكننا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر امعان وانصاف : كانت دولتا العالم ، دولة الفرس فى الشرق ودولة

---

(١) من معانيه السمرة والسواد .
(٢) الانسان : ٣ .

الرومان فى الغرب فى تنازع وتجالد مستمر ، دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة ، وأموال هالكة ، وظلم من الاحن حالكة ، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والاسراف والفخفخة والتفنن فى الملاذ بالغة حد ما لا يوصف فى قصور السلاطين والأمراء ، والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة ، وكان شره هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد ، فزادوا فى الضرائب ، وبالغوا فى فرض الأتاوات ، حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم ، وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات اعمالها ، وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف ، وفكر العاقل فى الاحتيال لسلب الغافل ، وتبع ذلك ان استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر ، والذل والاستكانة ، والخوف والاضطراب ، لفقد الأمن على الأرواح والأموال .

غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم ، فعاد هؤلاء كأشباح ، اللاعب يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر اليها من ذوى الألباب ، ففقد بذلك الاستقلال الشخصى ، وظن أفراد الرعايا انهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم ، كما هو الشأن فى العجماوات مع من يقتنيها .

ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ، ولكن بقى لها من قوة الفكر أردأ بقاياها ، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الالهى ، الذى يخالط الفطر الانسانية ، قد يفتق الغلف التى احاطت بالقلوب ، ويمزق الحجب التى اسدلت على العقول ، فتهتدى العامة الى السبيل ، ويثور الجم الغفير على العدد القليل ، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء

أن ينشئوا سحبا من الأوهام ، ويهيئوا كسفا من الأباطيل والخرافات ، ليقذفوا بها فى عقول العامة ، فيغلظ الحجاب ، ويعظم الرين ، ويختنق بذلك نور الفطرة ، ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم .

وصرح الدين ، بلسان رؤسائه ، أنه عدو العقل ، وعدو كل ما يثمره النظر ، الا ما كان تفسيرا لكتاب مقدس ، وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ومدد لا ينفد .

هذه حالة الأقوام كانت فى معارفهم ، وذلك كان شأنهم فى معايشهم ، عبيد أذلاء حيارى فى جهالة عمياء ، اللهم الا بعض شوادر من بقايا الحكمة الماضية والشرائع السابقة آوت الى بعض الأذهان ، ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر ، ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها ، بما انقلب من الوضع ، وانعكس من الطبع ، فكان يرى الدنس فى مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة ، والسلام مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه الأول وهلة الى أن مصدر كل ذلك هو الدين ، فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب بالناس مذهب الفوضى فى العقل والشريعة معا ، وظهرت مذاهب الاباحيين والدهريين فى شعوب متعددة ، وكان ذلك ويلا عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب .

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة فى النزعات ، خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة فى قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبى نسائها ، وسلب أموالها ، تسوقها المطامع الى المعامع ، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات ، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا أصنامهم من الحلوى ، ثم عبدوها ، فلما جاءوا

اكلوها !! وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصا من عار حياتهن ، أو تنصلا من نفقـــات معيشتهن ، وبلغ الفحش بهم مبلغا لم يعد معه للعفاف قيمة ، وبالجملة : فكانت ربط النظـــام الاجتماعى قد تراخت عقدها فى كل أمة ، وانفصمت عراها عند كل طائفة .

افلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام ان يؤدبهم برجل منهم ، يوحى اليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم ، التى اظلت رءوس جميع الأمم ؟؟ .

نعم .. كان ذلك ، وله الأمر من قبل ومن بعد ، فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول ، عام الفيل — (٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام) — ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى ،بمكة، ولد يتيما ، توفى والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال الا خمس جمال وبعض نعاج وجارية ، ويروى اقل من ذلك . وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته ايضا ، فاحتضنه جده عبد المطلب ، وبعد سنتين من كفالته توفى جده ، فكفله من بعده عمه ابو طالب ، وكان شهما كريما ، غير انه من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله ، وكان صلى الله عليه وسلم من بنى عمه وصبية قومه كأحدهم ، على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معا ، وفقر لم يسلم منه الـكافل والمـــكفول ، ولم يقم على تربيته مهذب ، ولم يعن بتثقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الأصنام ، غير انه مع

ذلك كان ينمو ويتكامل ، بدنا وعقلا وفضيلة وأدبا ، حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه ، بالأمين .

ادب الهى لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء ، خصوصا مع فقر القوام ، فاكتمل صلى الله عليه وسلم كاملا والقوم ناقصون ، رفيعا والناس منحطون ، موحدا وهم وثنيون ، سلما وهم شاغبون ، صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعا على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون .

من السنن المعروفة أن يتيما فقيرا أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ، لا سيما ان كان من ذوى قرابته وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا أستاذ ينبهه ، ولا عضدا ذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بمذاهبهم الى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع الى مخالفتهم اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده ، ولكن الأمر لم يجر على سنته ، بل بغضت اليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، ، وما جاء فى الكتاب من قوله : « ووجدك ضالا فهدى (١) » لا يفهم منه انه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم ، حاش لله ، ان ذلك لهو الأفك المبين ، وانما هى الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص فيما يرجون

---

(١) الضحى : ٧ .

للناس من الخلاص ، وطلب السبيل الى ما هدوا اليه من انقاذ الهالكين ، وارشاد الضالين ، وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته .

***

ووجد شيئا من المال يسد حاجته — (وقد كان له فى الاستزادة منه ما يرفه معيشته) — بما عمل لخديجة ، رضى الله عنها ، فى تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ما كان عليه اعاظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا ، ولم تغره زخارفها ، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله فى الوصول الى ما ترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ، ونما فيه حسب الانفراد والانقطاع الى الفكر ، والمراقبة والتحنث (٢) بمناجاة الله تعالى ، والتوسل اليه فى طلب المخرج من همه الأعظم فى تخليص قومه ، ونجاة العالم من الشر الذى تولاه ، الى ان انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه اليه الالهام الالهى ، وتجلى عليه النور القدس ، وهبط عليه الوحى فى المقام العلى ، فى تفصيل ليس هذا موضعه .

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه ، وكانت نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفى قناعة بما وجده من شرف النسبة الى المكان ، دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحف

---

(٢) أى التعبد بمناجاة الله .

« أبرهة » الحبشي (١) على ديارهم ، جاء الحبشي لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام ، وبيتهم الحرام ، ومنتجع حجيجهم ، ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم ، وتقـــدم بعض جنده فاستاق عددا من الابل فيهــا لعبد المطلب مائتا بعير ، وخرج عبد المطلب فى بعض قريش لمقابلة الملك ، فاستدناه وسأله حاجته فقال : هى أن ترد الى مائتى بعير أصبتها ، فلامه الملك على المطلب الحقير وقت الخطب الخطـــير ، فأجابه : أنا رب الابل أما البيت فله رب يحميه .

هذا غاية ما ينتهى اليه الاستسلام ، وعبد المطلب فى مكانه من الرياسة على قريش ، فـأين من تلك المـكانة محمدا صلى الله عليه وسلم ، فى حاله من الفقر ، ومقامه فى الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع ملكا أو يطاب سلطانا ؟؟ .. لا مال ، لا جاه ، لا جند ، لا أعوان ، لا سليقة فى الشعر ، لا براعة فى الـكتاب ، لا شهرة فى الخطاب ، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة فى نفوس العامة ، أو يرقى به الى مقام ما بين الخاصة .

ما هذا الذى رفع نفسه فوق النفوس ؟ ما الذى أعلى راسه على الرءوس ؟ ما الذى سما بهمته على الهمم حتى انتدب نفسه لارشاد الأمم ، وكفالته لهم كشف الغمم ، بل واحياء الرمم ؟؟ .

ما كان ذلك الا ما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم

---

(١) الملقب بالاشرم ، حكم اليمن العربية لحساب ملك الحبشة ، وكان فى الاصل عبدا لرجل رومانى ، واستقل باليمن عن الحبشة فترة من الزمن ، وكان مسيحيا ، بدأ حكمه لهذه البلاد سنة ٥٣١ م . أنظر دائرة المعارف الاسلامية .

الى مقوم لما زاغ من عقائدهم ، ويمده فى الانتهاء الى أمله قبل بلوغ أجله . ما هو الا الوحى الالهى يسعى نوره بين يديه ، يضىء له السبيل ، ويكفيه مؤنة الدليل ما هو الا الوعد السماوى قام لديه مقام القائد والجندى .

أرايت كيف نهض وحيدا فريدا يدعو الناس كافة الى التوحيد والاعتقاد بالعلى المجيد ، والكل ما بين وثنية متفرقة ودهرية وزندقة ؟ .. نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم ، ونبذ معبوداتهم ، وفى المشبهين المنغمسين فى الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم ، وفى التنويه بافراد اله واحد بالتصرف فى الأكوان ، ورد كل شىء فى الوجود اليه ، أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم الى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذى قامت به . صاح بذوى الزعامة ليهبطوا الى مصاف العامة فى الاستكانة الى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والأرض ، والقابض على أرواحهم فى هياكل اجسادهم . تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى ، فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحى أن نسبة أكبرهم الى الله كنسبة أصغر المعتقدين به ، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية الى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل ذى نفس انسانية فى الاستعانة برب واحد ، يستوى جميع الخلق فى النسبة اليه ، لا يتفاوتون الا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة . وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ، ويحلوا اغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل ، وقطعتهم

دون الأمل . مال على قراء الكتب السماوية والقائمين على ما أودعته من الشرائع الالهية ، فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدد النكير على المحرفين لها ، الصارفين لألفاظها الى غير ما قصد من وحيها ، اتباعا لشهواتهم ، ودعاهم الى فهمها ، والتحقق بسر علمهـــا حتى يكونوا على نور من ربهم . واستلفت كل انسان الى ما أودع فيه من المواهب الالهية ، ودعا الناس أجمعين ذكورا واناثا ، عامة وسادات ، الى عرفان أنفسهم ، وانهم من نوع خصه الله بالعقل ، وميزه بالفكر ، وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره ، وان الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان ، وسلطهم على فهمها ، والانتفـــاع بها بدون شرط ولا قيد الا الاعتدال ، والوقوف عند حدود الشريعة العـــادلة والفضيلة الكاملة ، واقدرهم بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واســطة احد الا من خصهم الله بوحيه ، وقـــد وكل اليهم معرفتهم بالدليل ، كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع . والحــــاجة الى أولئك المصطفين انما هى فى معرفة الصفات التى أذن الله ان تعلم منه ، وليست فى الاعتقاد بوجوده ، وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه الا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل ، ثم الانسان بعـــد ذلك يذهب بارادته الى ما سخرت له بمقتضى الفطرة .

دعا الانسان الى معرفة انه جسم وروح ، وانه بذلك من عالمين مختلفين ، وان كانا ممتزجين ، وانه مطالب بخدمتهما جميعا وايفاء كل منهما ما قررت له الحكمة

الالهية من الحق دعا الناس كافة الى الاستعداد فى هذه الحياة لما سيلاقون فى الحياة الأخرى ، وبين لهم ان خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله فى العبــــادة، والاخلاص للعباد فى العدل والنصيحة والارشاد .

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولا حول له ولا قوة ، كل هذا كان منه والنـــاس أحباء ما ألفوا ، وان كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ما جهلوا ، وان كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة ، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم ، وعبيد شهوتهم ، لا يفقهون دعوته ولا يعقلون رسالته ، عقـــدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخـــاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر فى دعوى فقير أمى مثله ، لا يرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم ، والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف .

لكنه فى فقره وضعفه كان يقـــارعهم بالحجــة ، ويناضلهم بالدليل ، ويأخذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبههم للعبر ، ويحوطهم مع ذلك ، بالموعظــة الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه ، عادل فى أمره ونهيـــه ، أو أب حكيم فى تربية أبنائه ، شـــديد الحرص على مصالحهم ، رؤوف بهم فى شدته ، رحيم فى سلطته .

ما هذه القوة فى ذلك الضعف ؟؟ ما هذا السلطان فى مظنة العجز ! ما هذا العلم فى تلك الأمية ؟! ما هـــذا الرشاد فى غمرات الجاهلية ؟! . ان هو الا خطـــاب الجبروت الأعلى ، قارعة القدرة العظمى ، نداء العناية العليا ذلك خطاب الله القادر على كل شىء ، الذى وسع

كل شيء رحمة وعلما ، ذلك أمر الله الصادع ، يقرع الآذان ، ويشق الحجب ، ويمزق الغلف (١) ، وينفذ الى القلوب على لسان من اختاره لينطق به ، واختصه بذلك ، وهو اضعف قومه ، ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه ، بعيدا عن الظنة ، بريئا من التهمة ! لاتيانه على غير المعتاد بين خلقه .

اى برهان على النبوة اعظم من هذا !؟ . . امى قام بدعوة الكاتبين الى فهم ما يكتبون وما يقرؤون ؟! بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ، ليمحصوا ما كانوا يعلمون ؟! فى ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ؟! ناشىء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء ؟؟ غريب فى اقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة وأبعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر فى سنته البديعة ، أخذ يقرر للعالم اجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها ؟! .

ما هذا الخطاب المفحم ؟ ما ذلك الدليل الملجم ؟ . . اقول ما هذا بشرا ، ان هذا الا ملك كريم ؟! لا ، لا اقول ، ولكن أقول كما امره الله أن يصف نفسه : ان هو الا بشر مثلكم يوحى اليه . نبى صدق الأنبياء ، ولكن لم يأت فى الأقناع برسالته بما يلهى الأبصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر ، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له ، واختص العقل بالخطاب ، وحاكم اليه الخطأ والصواب ، وجعل فى قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

---

(١) مفردها غلاف .

القــــرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تتطرق اليه الريبة ، ان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، كان فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرنا ، وتواترت أخبار الأمم كافة على انه جاء بكتاب قال انه أنزل عليه ، وان ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف ، المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين الى اليوم . كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة ، نقب على الصحيح منها ، وغادر الأباطيل التى الحقتها الأوهام بها ، ونبه على وجوه العبرة فيها . حكى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم ، وما كان بينهم وبين أممهم ، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدون برسالتهم . آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما افسدوا من عقائدهم ، وما خلطوا فى احكامهم ، وما حرفوا ، بالتأويل ، فى كتبهم . وشرع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم ، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها ، وقام بها العدل ، وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ، ثم عظمت المضرة فى اهمالها والانحراف عنها أو البعيد بها عن الروح الذى أودعته ، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية ،

كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم ، ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لهـا القلوب ، وتهش لاستقبالها العقول ، وتنصرف وراءها الهمم انصرافهـا فى السبيل الأمم .

نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبـار على أنه أرقى الاعصار عنـد العرب ، وأغزرها مادة فى الفصاحة ، وانه المتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطـاب ، وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ، ونتائج الفطنة والذكاء ، هو الغلب فى القول ، والسبق الى اصـابة مكان الوجدان من القلوب ومقر الاذعان من العقول ، وتفانيهم فى المفاخرة بذلك لا يحتاج الى الاطالة فى بيانه .

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى ، صلى الله عليـه وسلم ، والتماسهم الوسائل ، قريبها وبعيدها ، لابطال دعواه ، وتكذيبه فى الاخبـار عن الله ، واتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم ، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته ، والأمراء الذين يدعوهم السلطان الى مناواته: والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته ، وقد اشتد جميع أولئك فى مقاومته ، وانهالوا بقواهم عليه ، استكبارا عن الخضوع له ، وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم ، وحمية لعقـائدهم وعقائد أسلافهم ، وهو مع ذلك يخطىء آراءهم ، ويسفه أحلامهم ، ويحتقر أصنامهم ، ويدعوهم الى ما لم تعهده أيامهم ، ولم تخفق لمثله أعلامهم ، ولا حجة له بين يدى ذلك كله الا تحديهم بالاتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب ،

أو بعشر سورة من مثله . وكان في استطاعتهم أن يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء البلغاء ما شاءوا ، ليأتوا بشيء من مثل ما اتى به ، ليبطلوا الحجة ، ويفحموا صاحب الدعوة :

جاءنا الخبر المتواتر انه مع طول زمن التحدى ، ولجاج القوم في التعدم أصيبوا بالعجز ، ورجعوا للخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه العلى على جميع الاحكام . اليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان امى أعظم معجزة وادل برهان على انه ليس من صنع البشر ؟ وانما هو النور المنبعث عن شمس العلم الالهى ، والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الأمى ، صلوات الله عليه .

هذا وقد جاء في الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون ، كالخبر في قوله : (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) (١) ، وكالوعد الصريح في قوله : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم (٢) الآية ، وقد تحقق جميع ذلك وفي القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته .

ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء في تحدى العرب به ، واكتفائه في الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله ، مع سعة البلاد العربية ، ووفرة سكانها ، وتباعد أطرافها ، وانتشار دعوته على لسان الوافدين الى

(١) الروم : ٢ ـ ٤ .
(٢) النور : ٥٥ .

مكة من جميع أرجائها ، ومع انه لم يسبق له ، صلى الله عليه وسلم ، السياحة فى نواحيها والتعرف برجالها ، وقصور العلم البشرى ، عادة ، عن الاحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة كالأمة العربية ، فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشىء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا ، ومن الصعب ، بل من المتعذر ، أن يصدر عن عاقل التزام كالذى التزمه ، وشرط كالذى شرطه على نفسه ، لغلبة الظن عند من له شىء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته ، وانما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه ، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه .

يقول واهم : ان العجز حجة على من عجز ، فان العجز هى حجة الافحام والزام الخصم ، وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ، ولكن ليس ذلك بملزم لغيره ، فمن الممكن ان لا يسلم غيره بما سلمه ، فلا يفحمه الدليل ، بل يجد الى ابطاله أقرب سبيل .

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان ، اذ لا يوجد من المشابهة بين اعجاز القرآن وافحام الدليل الا انه يوجد عن كل منهما عجز ، وشتان بين العجزين ، وبعد ما بين وجهتى الاستدلال فيهما ، فان اعجاز القرآن برهن على أمر واقعى ، وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة ، وقلنا : القوى البشرية ، لأنه جاء بلسان عربى ، وقد عرف الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوة ، وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرناه ، وحال القوم فى

العناد كما بينا ، ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشيء من مبلغ عقولهم ، فلا يعقل ان فارسيا أو هنديا أو رومانيا يبلغ من قوة البلاغة فى العربية أن يأتى بما عجز عنه العرب انفسهم ، وتقاصر القوى عن ذلك ، مع التماثل بين النبى وبينهم في النشأة والتربية ، وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على ان الكلام ليس مما أعتيد صدوره عن البشر ، فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه .

ثم ما ردد فى القرآن من تسجيل العجز عليهم ، والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة ، مما يدل على الثقة من امره ، مع ما سبق تعداده من الأمور التى لا يمكن معهــا لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الأجل ، كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة ، لا رجل يعظ وينصح على العادة .

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الـكتاب الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، رسول الله الى خلقه ، فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد فى الـكتاب المنزل عليه ، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة ، وقد جاء فى الـكتاب انه خاتم الأنبياء ، فوجب علينا الايمان بذلك كذلك .

الـديـن الإســلامى
أو الإســــلام

بقى علينا ان نشير الى وظيفة الدين الاسلامى ، وما دعا اليه ، على وجه الاجمال ، وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة ، والسر فى كون النبى ، صلى الله عليه وسلم ، خاتم المرسلين ، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

هو الدين الذى جاء به محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم ، وجرى العمل عليه حينا من الزمن بينهم بلا خوف ولا اعتساف فى التأويل ، ولا ميل مع الشيع ، وآتى مجمله فى هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه . وما سندى فيما أقول الا الكتاب ، والسنة القويمة ، وهدى الراشدين .

(★) من هنا حتى ماقبل موضوع (التصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم) من رسالة التوحيد هذه ، نشر أيضا فى كتاب (الاسلام والرد على منتقديه) ص ٩١ ـ ١١٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م . ولقد راجعنا النسختين وقومنا منهما النص .

التوحيد

جاء الدين الاسلامي بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، فأقام الأدلة على أن للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم ، والقدرة ، والارادة ، وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم الا أنه موجدهم ، وانهم له واليه راجعون :

(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)[1] .

وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها ، له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ، ولم يشتبهوا فى شيء منها ، وان ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين ، وانما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال ، على سنة له فى ذلك سنها فى علمه الأزلى ، الذى لا يعتريه التبديل

(١) الاخلاص : ١ ـ ٤ .

ولا يدنو منه التغيير ، وحظر على كل ذى عقل أن يعترف لأحد بشيء من ذلك الا ببرهان ينتهى فى مقدماته الى حكم الحس وما جاوره من البديهات التى لا تنقص فى الوضوح ، بل قد تعلوه ، كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معا ، أو وجوب ان الكل أعظم من الجزء مثلا ، وقضى على هؤلاء ، كفيرهم ، بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون ، وان ما يجريه على أيديهم فانما هو باذن خاص ، وبتيسير خاص ، فى موضع خاص ، لحكمة خاصة ، ولا يعرف شأن الله فى شيء من هذا الا ببرهان ، كما تقدم .

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) (١) ، والشكر عند العرب معروف أنه : تصريف النعمة فيما كان الأنعام بها لأجله ، دل بمثل هذا على ان الله وهبنا من الحواس ، وغرز فينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه ، بمحض تلك الموهبة ، فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها . واما ما تتحير فيه مداركنا ، وتقصر دونه قوانا ، وتشعر فيه انفسنا بسلطان يقهرها ، أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه ، على أنه فوق ما تعرف من القوى المسخرة لها ، وكان لابد من الخضوع له ، والرجوع اليه ، والاستعانة به ، فذلك انما يرد الى الله وحده ، فلا يجوز ان تخشع الا له ولا ان تطمئن الا اليه ، وكذلك جعل شأنهما فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة ، لا يسوغ لها ان تلجأ الى أحد غير الله فى قبول أعمالها من الطيبات،

---

(١) النحل : ٧٨ .

ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات ، فهو وحده مالك يوم الدين .

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل أو العبارة واللفظ ، لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة ، تبع هذا طهـــارة العقول من الأوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الأوهام ، وتخلصت بتلك الطهـــارة من الاختلاف فى المعبودين وعليهم ، وارتفع شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لأحـد الا لخالق السموات والأرض وقـاهر الناس أجمعين ، وأبيح لـكل أحد ، بل فرض عليه أن يقول كما قـال ابراهيم : (انى وجهت وجهى للذى فطـر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) (١) ، وكمـا أمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن يقول : (ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العـالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) (٢) ، تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت ارادته من القيود التى كانت تقعدها بارادة غيره ، سواء كانت ارادة بشرية ظن انها شعبة من الارادة الالهية ، أو انها هى ، كارادة الرؤساء المسيطرين أو ارادة موهومة اخترعها الخيال ، كما يظن فى القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها ، وافتكت عزيمته من أسر الوسائط ، والشفعاء ، والمتكهنة والعرفاء ، وزعماء السيطرة على الأسرار ، ومنتحلى حق

---

(١) الانعام : ٧٩ .
(٢) الانعام : ١٦٢ .

الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله ، الزاعمين أنهم واسطة النجاة ، وبأيديهم الأشقاء والاسعاد .
وبالجملة ، فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين ، وصار الانسان بالتوحيد ، عبدا لله ، حرا من العبودية لكل ما سواه ، فكان له من الحق ما للحر على الحر ، لا على فى الحق ولا وضيع ، ولا سافل ولا رفيع ، ولا تفاوت بين الناس الا بتفاوت أعمالهم ، ولا تفاضل الا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ، ولا يقربهم من الله الا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء ، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمخض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة وكفت عنها أيدى العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته .

***

مكانة العمل

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقرر ان لكل نفس ماكسبت وعليها ما اكتسبت (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (١) ، (وأن ليس للانسان الا ما سعى (٢) ، وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ، ولم يحظر عليه الا ما كان ضارا بنفسه ، أو بمن يدخل فى ولايته ، أو ما تعدى ضرره الى غيره ، وحدد له فى ذلك الحدود

---

(١) الزلزلة : ٧ ، ٨ .
(٢) النجم : ٣٩

العامة بما ينطبق على مصـــــالح البشر كافة ، فكفل الاســــتقلال لــكل شخص فى عمله ، واتسع المجــال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبــة تتعثر بها ، الا حقا محترما تصطدم به .

***

حرية الفكر .. والتجديد

أنحى الاسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم . صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها ، كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة (١) من سدنة هياكل الوهم : « « نم فان الليل حالك ، والطريق وعرة والغاية بعيدة ، والراحة كليلة والأزواد قليلة » !! .

علا صوت الاسلام على وساوس الطغــام ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام ، أعلام الكون ودلائل الحوادث ، وانما المعلمون منبهون ومرشدون ، والى طرق البحث هادون ، صرح فى وصف أهل الحق بأنهم : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) (٢) ، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال ، من غير فرق بين القائلين ، ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ، ومال على الرؤساء

---

(١) الهينمة : الصوت الخفى .
(٢) الزمر ، ١٨

فانزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم ، يخبرونهم كما يشاءون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ، ويقضون فيهـــا بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنــون ويتوهمون . صرف القلوب عن التعلق بما كان عليـــه الآباء ، وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا مسميا لعقول على عقول ، ولا لأذهان على أذهان ، وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيهـــا والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه ، وقد يـكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم : (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) (١) ، وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب ، عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته سير اسلافهم ، وقولهم : (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) (٢) ، (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون) (٣) .

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان اســـتعبده ، ورده الى مملكته يقضى

---

(١) الانعام : ١١ .
(٢) لقمان : ٢١ .
(٣) الزخرف : ٢٢ .

بحكمه وحكمته ، مع الخضـــــوع مع ذلك الله وحده ، والوقوف عند شريعته ، ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها .

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه امران عظيمان طالما حرم منهما وهما : اســتقلال الارادة ، واستقلال الرأى والفكر ، وبهما كملت له انسانيته ، واستعد الآن يبلغ من السعادة ما هياه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها ، وقد قال بعض حكماء الغربيين ، من متأخريهم : ان نشأة المدنية فى أوروبا انما قامت على هذين الأصلين ، فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحـــرك العقول للبحث والنظر الا بعد أن عرف العدد الكثير انفسهم ، وان لهم حقا فى تصريف اختيارهم ، وفى طلب الحقائق بعقولهم ، ولم يصل اليهم هــذا النوع من العرفان الا فى الجيـــل السادس عشر من ميلاد المسيح ، وقرر ذلك الحكيم : أنه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من أهله فى تلك الأزمان (١) .

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قــد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الــكتب السماوية ، استئثارا من أولئك الرؤســـاء بحق الفهم لانفسهم ، وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم ، ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتبة المقدسة ، ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعا من تلك الــكتب ، لــكن على شريطة ان لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى

---

(١) الاشارة هنا الى أثر التعاليم الاسلامية التى اقتبسها الغرب من الاندلس وبواسطة الاختلاط زمن الحروب الصليبية .. الخ فى حركة الاصلاح الدينى فى أوروبا . وسيأتى لنا تعليق خاص بهذا الامر فى الفصل الخاص بانتشار الاسلام من رسالة التوحيد هذه .

ما ترمي اليه ، ثم غالوا في ذلك فحرموا نفسهم أيضا مزية الفهم الا قليلا ، ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ما جاء في الشرائع والنبوات ، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبد بالأصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال ، فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا ، فقال : (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون) (١) ، (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين) (٢) . أما الأماني ففسرت بالقراءات والتلاوات ، أي لا يعلمون منه الا أن يتلوه ، واذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا اليه فهو عن غير علم بما أودعه ، وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه دينا ، واذا عن لأحدهم أن يبين شيئا من أحكامه ومقاصده ، لشهوة دفعته الى ذلك ، جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة ، واعتسف في التأويل ، وقال : هذا من عند الله (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) (٣) ، أما الذين قال : انهم لم يحملوا التوراة ، وهي بين أيديهم بعد ما حملوها ، فهم الذين لم يعرفوا منها الا الألفاظ ، ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والأحكام ، فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها ، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التي نصبت بانزالها ، فحق عليهم ذلك المثل الذي أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به ، مثل الحمار الذي يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها الا العناء

---

(١) البقرة : ٧٨ .
(٢) الجمعة : ٥ .
(٣) البقرة : ٧٩ .

والتعب وقصم الظهور وانبهار النفس ، وما اشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال ، فما كان سببا فى اسعادهم ، وهو التنزيل والشريعة ، أصبح سببا فى شـــقائهم بالجهل والغباوة .. وبهذا التقريع ونحوه . وبالدعوة العـامة الى الفهم وتمحيص الألباب للتفقه واليقين ، مما هو منتشر فى القرآن العزيز ، فرض الاسلام على كل ذى دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه ، وما قرر من شرعه ، وجعل الناس فى ذلك ســواء بعد استيفاء الشرط باعداد ما لابد منه للفهم ، وهو سهل المنال على الجمهور الأعظم من المتدينين ، لا تختص به طبقـــة من الطبقات ولا يحتكر مزيته وقت من الأوقات .

***

اتفاق الأديان على التوحيد

جاء الاسلام والناس شيع فى الدين ، وان كانوا ، الا قليلا ، فى جانب عن اليقين ، يتنابذون ويتلاعنون ، ويزعمون فى ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون ، فرقة وتخالف وشغب يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب ، انــكر الاســلام ذلك كله ، وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بأن دين الله فى جميع الأزمان وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد ، قال الله .

(إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ[1]) ،

(١) آل عمران : ١٩ .

(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[1]) ، (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ)[2] ، (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[3] ، وكثير من ذلك يطول إيراده فى هذه الوريقات .

والآيات الكريمة التى تعيب على أهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة ، مع ظهور الحجة ، واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته . نص الكتاب على أن دين الله

(١) آل عمران : ٦٧ .
(٢) الشورى : ١٣ .
(٣) آل عمران : ٦٤ .

فى جميع الأزمان هو افراده بالربوبية ، والاستسلام له وحده بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ، ونهى عنه ، مما هو مصلحة البشر ، وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وقد ضمنه كتبه التى انزلها على المصطفين من رسله ، ودعا العقول الى فهمه منها ، والعزائم الى العمل به ، وان هذا المعنى من الدين هو الأصل الذى يرجع اليه عند هبوب ريح التخـــالف ، وهو الميزان الذى توزن به الأقوال عند التناصف ، وان اللجاج والمراء فى الجدل فراق مع الدين ، وبعد عن سنته ، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية فى الأنعام على البشرية ، ذهب الخـــلاف وتراجعت القلوب الى هداها ، وسار الكافة فى مراشدهم اخــوانا ، بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين .

***

اختلاف الأديان فى العبادات

اما صور العبادات ، وضروب الاحتفالات ، مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة ســـابقها مع لاحقها ، واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها ، فمصدره رحمة الله ورأفته فى ايتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان ، وكما جرت سنته ــ وهو رب العالمين ــ بالتدريج فى تربية الأشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئا ، الى راشد فى عقله ، كامل فى نشأته ، يمزق الحجب بفكره ، ويواصل أسرار الكون بنظره ، كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه فى تربية الأمم ، فلم يكن من شأن الانسان ، فى جملته ونوعه ، أن يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم

يبلغ من الكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته فى النمو قائما على ما قررته الفطرة الالهية فى شأن افراده ، وهـذا من البديهيات التى لا يصح الاختلاف فيها ، وان اختلف أهل النظر فى بيان ما تفرع فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى خاصة ، فلا نطيل الكلام فيه هنا .

***

تطـور الأديان

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة ، بل والخاصة ، فى طور أشبه بطور الطفولية للناشىء الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه الا ما وقع تحت حسه ، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه ، وأن يتأول بذهنه من المعانى ما لا يقرب من لمسه ، ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه ، فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه فى هم شاغل عما يلقى اليه فيما يصله بغيره ، اللهم الا يدا تصل الى فمه بطعام أو تسنده فى قعود أو قيام .

فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان ، أو يرقى اليه بسلم البرهان ، بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام — وهم عيال الله — سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن ، لا يأتيه الا من قبل ما يحسه بسمعه أو ببصره ، فأخذتهم بالأوامر الصادعة ، والزواجر الرادعة ، وطالبتهم بالطاعة ،

وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة (١) . كلفتهم بمعقول المعنى ، جلى الغاية ، وأن لم يفهموا معناه ، ولم تصل مداركهم الى مرماه ، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم ، وتنفعل به مشاعرهم ، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه .

ثم مضت على ذلك أزمان ، علت فيها الأقوام وسفلت ، وارتفعت وانحطت ، وجربت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وذاقت من الأيام آلاما ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياما وأياما ، ووجدت الأنفس بنفث (٢) الحوادث ولقن (٣) الكوارث شعورا أدق من الحس ، وأدخل فى الوجدان ، لا يرتفع فى الجملة عما تشعر به قلوب النساء ، أو تذهب معه نزعات الغلمان ، فجاء دين يخاطب العواطف ، ويناجى المراحم ، ويستعطف الاهواء ، ويحادث خطرات القلوب ، فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ، ويوجه وجوههم نحو الملكوت الاعلى ، ويقتضى من صاحب الحق الا يطالب به ولو بحق ، ويغلق أبواب السماء فى وجوه الأغنياء ، وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف (٢) ، وسن للناس سننا فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه ، وما دعاهم اليه ، فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها ، وداوى من أمراضها ، ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله ، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والاخذ بأقواله،

---

(١) الاشارة هنا الى الديانة الموسوية .
(٢) القاء الحوادث والهامها .
(٣) لقن الكوارث : كلامها المباشر ودلالاتها .
(٤) الاشارة هنا الى المسيحية .

ووقر فى الظنون ان اتباع وصاياه ضرب من المحال ، فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ، ومزاحمـــــة أهل الترف فى جمع الأموال ، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتـــأويل ، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل .

هذا كان شأنهم فى السجايا والأعمال ، نسوا طهارته، وباعوا نزاهته . اما فى العقائد فتفرقوا شيعا ، وأحدثوا بدعا ، ولم يستمسكوا من أصوله الا بما ظنوه من اشد أركانها ، وتوهموه من أقوى دعائمها ، وهو حرمان العقول من النظر فيه ، بل وفى غيره من دقائق الأكوان ، والخطر على الأفكار أن تنفذ الى شىء من سرائر الخلقة ، فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل ، وان الدين من أشد أعداء العلم ، ولم يكف الذاهب الى ذلك أن يأخذ به نفسه ، بل جد فى حمل الناس على مذهبه بــكل ما يملك من حول وقوة ، وافضى الغلو فى ذلك بالأنفس الى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانسانى ، وهى نزعة الحرب بين أهل الدين للالتزام ببعض قضــايا الدين ، فتقوض الأصل وتخرمت العلائق بين الأهل ، وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان التعـــاون ، والحرب محل السلام ، وكان الناس على ذلك الى ان جاء الاسلام .

***

الاسلام

كان سن الاجتمــاع البشرى قد بلغ بالانسان أشـــده وأعدته الحوادث الماضية الى رشده ، فجاء الاســـلام يخاطب العقــل ويستصرخ الفهم واللب ، ويشركه مع

العواطف والاحساس فى ارشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والاخروية ، وبين للناس ما اختلفوا فيه ، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، وبرهن على أن دين الله فى جميع الأجيال واحد ، ومشيئته فى اصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة ، وان رسم العبادة على الأشباح انما هو لتجديد الذكرى فى الأرواح ، وان الله لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب ، وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه باصلاح سره ، ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن ، وعد كلا الأمرين طهرا مطلوبا ، وجعل روح العبادة الاخلاص ، وأن ما فرض من الأعمال انما هو لما أوجب من التطبع بصالح الملكات (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) (١) ، (ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا واذ مسه الخير منوعا ، الا المصلين) (٢) ، ورفع الغنى الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر ، بل ربما فضله عليه ، وعامل الانسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد ، فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة ، وصرح بما لا يقبل التأويل أن فى ذلك رضا الله وشكر نعمته ، وان الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا وصول الى خير العقبى الا بالسعى فى صلاح الدنيا .

التفت الى أهل العناد فقال لهم : (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) (٣) . وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ، ونص على ان

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .
(٢) المعارج : ١٩ .
(٣) البقرة : ١١١ .

التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين ، ولم يقف في ذلك ، عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان ، بل شرع شريعة الوفاق ، وقررها في العمل ، فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، وسوغ مؤاكلتهم ، وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن ، ومن المعلوم ان المحاسنة هى رسول المحبة ، وعقد الالفة ، والمصاهرة انما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين ، والارتباط بينهما بروابط الائتلاف .

ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدفعون عن أنفسهم ، ونص على ان لهم ما لنا وعلينا ، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيدا يقدمونه من مالهم ، ونهى بعد ذلك عن كل اكراه فى الدين ، وطيب قلوب المؤمنين فى قوله (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) (١) ، فعليهم الدعوة الى الخير بالتى هى أحسن ، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة فى الحمل على الاسلام ، فان نوره جدير أن يخترق القلوب ، وليست الآيات فى الأمر بالمعروف بين المسلمين ، فانه لا اهتداء الا بعد القيام به ، ولو أريد ذلك لكان التعبير : « على كل واحد منكم بنفسه » لا (عليكم أنفسكم) ، كما هو ظاهر لكل عربى ، كل ذلك ليرشد الناس الى ان الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ، ولكن ليهديهم الى الخير فى جميع نواحيه .

رفع الاسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية ، وقرر لكل قطرة شرف النسبة الى الله فى الخلقة ، وشرف

---

(١) المائدة : ١٠٥ .

اندراجها فى النوع الانسانى بالجنس (١) والفصل (٢) والخاصة (٣) ، وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها ، على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم ، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم ، فأماتوا الأرواح فى معظم الأمم وصيروا أكثر الشعوب هياكل واشباحا .

هذه عبادات الاسلام ، على ما فى الكتاب وصحيح السنة ، تتفق على ما يليق بجلال الله ، وسمو وجوده عن الأشياء ، وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة ..

فالصلاة : ركوع وسجود ، وحركة وسكون ، ودعاء وتضرع ، وتسبيح وتعظيم ، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهى الذى يغمر القوة البشرية ، ويستغرق الحول ، فتخشع له القلوب ، وتستخذى له النفوس ، وليس فيها شىء يعلو على متناول العقل الا نحو تحديد عدد الركعات ، أو رمى الجمرات (٤) ، على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير ، وليس فيه من ظاهر

(١) الجنس ، في المنطق ، هو كل مقول على كثيرين مختلفين بالحقيقة في جواب ماهو • أنظر (المعجم الفلسفى) •

(٢) الفصل فى المنطق ، هو جملة الموضوعات التى تربط بينها صفات مشتركة ، ويطلق على جزء من الماهية يميز النوع ، كالناطق بالنسبة للانسان ، واذا ميز النوع عن مشاركيه فى الجنس القريب ، سمى « بالفصل القريب » واذا ميزه عن مشاركيه فى الجنس البعيد سمي «بالفصل البعيد» • أنظر المرجع السابق •

(٣) هى الكلى الدال على نوع واحد في جواب أى شىء هو ، لا بالذات ، بل بالعرض •• وتطلق على ما ليس داخلا فى الماهية ولكنه يميز الشىء ، كما تطلق على ماهو ملازم للشىء على الدوام ، الخ • أنظر المرجع السابق •

(٤) فى مناسك الحج •

العبث واستحالة المعنى ما يخل بالأصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير .

أما الصوم : فحرمان يعظم به الله فى النفس ، وتعرف به مقادير النعم عند فقدها ، ومكانة الاحسان الالهى فى التفضل بها (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) (١) .

أما أعمال الحج فتذكير للانسان بأوليات حاجاته ، وتعهد له بتمثيل المساواة بين أفراده ، ولو فى العمر مرة ، يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير ، والصعلوك والأمير ، ويظهر الجميع فى معرض واحد عراة الأبدان ، متجردين عن آثار الصنعة ، وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين ، كل ذلك مع استبقائهم فى الطواف والسعى والمواقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام ، وهو أبو الدين ، وهو الذى سماهم المسلمين ، واستقرار يقينهم على ان لا شىء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع ، وشعار هذا الاذعان الكريم فى كل عمل : « الله أكبر » .

أين هذا كله مما تجد فى عبادات أقوام آخرين ؟ يضل فيها العقل ، ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد ؟! .

كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير : « العالم » والكون الصغير « الانسان » فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم انما يجرى أمرها على السنن الالهية التى قدرها الله فى علمه الأزلى ، لا يغيرها شىء من الطوارىء الجزئية ،

---

(١) البقرة : ١٨٣ .

غير انه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها ، بل ينبغى أن يحيى ذكره عند رؤيتها ، فقد جاء على لسان النبى ، صلى الله عليه وسلم : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله » . وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد ، لا يقضى فيه الا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها .

ثم أماط اللثام عن حال الانسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التى يرزءون بها ، ففصل بين الأمرين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما ، فأما النعم التى يمتع الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة ، والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه فكثير منها — كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد — قد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج ، أو طاعة وعصيان ، وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا ، وكثيرا ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه، وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة عبروا عن اخلاصهم فى التسليم بقولهم : « انا لله وانا اليه راجعون ؟ » (١) ، فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ، ولا اخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ولا فى تلك النعم الخاصة ، اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب على جارى العادة ، كارتباط الفقر بالاسراف ، والذل بالجبن ، وضياع

---

(١) البقرة : ١٥٦ .

السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الأغلب ، والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الأكثر ، وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر .

أما شأن الأمم فليس على ذلك ، فان الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الالهية ، من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول الى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغيبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوة ، والتعاون على البر ، والتناصح فى الخير والشر ، وغير ذلك من أصول الفضائل ، ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة : (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها) (١) ، ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها ، يزيد الله النعم بقوته ، وينقصها بضعفه ، حتى اذا فارقها ذهبت السعادة على أثره ، وتبعته الراحة الى مقره ، واستبدل الله عزة القوم بالذل ، وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين ، أو العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون : (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) (٢) . أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ، لا ينفعهم الأنين ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ، ولا يستجاب منهم الدعاء ، ولا كاشف لما نزل بهم الا أن يلجئوا الى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر

---

(١) آل عمران : ١٤٥ .
(٢) الاسراء : ١٦ .

والصبر والشكر (ان الله لا يغير ما بقــوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (١) ، (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٢) . وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه : « اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ، ولم يرفع الا بتوبة » .

على هذه السنن جرى سلف الأمة ، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ، كان غيره يظن انه يزلزل الأرض بدعائه ، ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ، ماض فى غلوائه ، وما كان يغنى عنه ظنــــه من الحق شيئا .

التعليم

حث القرآن على التعليم ، وارشاد العامة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقال : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) (٣)، ثم فرض ذلك فى قوله: (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت

(١) الرعد : ١١ .
(٢) الاحزاب : ٦٢ .
(٣) التوبة : ١٢٢ .

وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون واما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ، ولله ما فى السموات وما فى الأرض والى الله ترجع الأمور) (١) ، ثم بعد هذا الوعيد الذى يزعج المفرطين ، وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين ، ابرز حال الآمارين بالمعروف النهائين عن المنكر فى اجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال امة ، فقال : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (٢) ، فقدم ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الايمان ، فى هذه الآية ، مع ان الايمان هو الأصل الذى تقوم عليه أعمال البر ، والدوحة التى تتفرع عنها افنان الخير ، تشريفا لتلك الفريضة ، واعلاء لمنزلتها بين الفرائض ، بل تبنيها على انها حفاظ الايمان وملاك أمره ، ثم شد بالانكار على قوم أغفلوها ، وأهل دين أهملوها ، فقال (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) (٣) فقذف عليهم اللعنة ، وهى أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه .

---

(١) آل عمران : ١٠٤ ـ ١٠٩ .

(٢) آل عمران : ١١٠ .

(٣) المائدة : ٧٨ .

الزكاة

فرض الاسلام للفقـــراء فى أموال الأغنياء حقا معلوما يفيض به الآخرون على الأولين ، سدا لحاجة المعدم ، وتفريجا لـــكربه الغـــارم ، وتحـــريرا لرقـاب المستعبدين ، وتيسيرا لأبناء السبيل ، ولم يحث على شيء حثه على الانفاق من الأموال فى سبيل الخير ، وكثيرا ما جعله عنوان الايمان ودليل الاهتــــداء الى الصراط المستقيم ، فاستل بذلك ضغائن اهل الفاقة ، ومحص (١) صدورهم من الأحقـــاد على من فضلهم الله عليهم فى الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبـــة هؤلاء ، وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين ، فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس أجمعين ، وأى دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هذا ؟ (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) (٢) .

***

أغلق الاسلام بابى الشر ، وسد ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقـــــامرة والربا تحريما باتا لا هوادة فيه .

لم يدع الاسلام ، بعد ما قررنا ، أصلا من أصـــول الفضائل الا أتى عليه ، ولا أما من أمهات الصالحات الا أحياها ، ولا قاعدة من قواعد النظام الا قررها ، فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده ــ كما ذكرنا ــ حرية الفكر ، واستقلال العقل فى النظر ، وما به صـــلاح السجايا وما فيه انهاض العزائم الى العمل وسوقها فى

---

(١) أى خلصها .

(٢) الحديد : ٢١ .

سبيل السعى . ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزا لا ينفد وذخيرة لا تفنى .

هل بعد الرشد وصاية ؟ وبعد اكتمال العقل ولاية ؟؟ .. كلا .. قد تبين الرشد من الغى ، ولم يبق الا اتباع الهدى ، والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين ، لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وانتهت الرسالات برسالته ، كما صرح بذلك الكتاب ، وأيدته السنة الصحيحة ، وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده (١) ، واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها انه يحدث عن الله بشرع ، أو يصدع عن وحيه بأمر ، هكذا يصدق نبأ الغيب : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما) (٢) .

---

(١) الاشارة الى المتنبئين بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، واشهرهم مسيلمة الكذاب .

(٢) الاحزاب : ٤٠ .

انتشار الإسلام

بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ

كانت حاجة الأمم الى الاصلاح عامة ، فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك ، لكن يندهش عقل الناظر فى أحوال البشر عندما يرى ان هذا الدين يجمع اليه الأمة العربية من أدناها الى اقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ، ثم يتناول من بقيـة الأمم ما بين المحيط الغربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد ، وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الأديان ، ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب ، واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب .

ابتدأ هذا الدين بالدعوة ، كغيره من الأديان ، ولقى من أعداء انفسهم أشد ما يلقى حق من باطل ، أوذى الداعى ، صلى الله عليه وسلم ، بضروب الايذاء ، وأقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب ، لولا عناية الله ، وعذب المستجيبون له ، وحرموا الرزق ، وطردوا من الدار ، وسفكت منهم دماء غزيرة ، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر ويثبت الله بمشهدها المستيقنين ، ويقـذف بها الرعب فى أنفس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهى ذوب ما فسـد من طباعهم فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدى الأطبـاء الحـاذقين

(لِيَمِيزَ اللهُ الخبيثَ مِنَ الطيبِ ويجعلَ الخبيثَ بعضهُ عَلَى بَعْض فيركمهُ جميعاً فيجعلهُ فى جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمْ الخاسِرُونَ)[1] .

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ، ليحصدوا نبتته ، ويخنقوا دعوته ، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للأقوياء ، والفقير للاغنياء ، ولا ناصر له الا انه الحق بين الأباطيل والرشد فى ظلمات الاضاليل ، حتى ظفر بالعزة ، وتعزز بالمتعة . وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر ، كانت تدعو اليها ، وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان ، وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحا ، ولا أنالهم القهر فلاحا .

ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ، ولم يعهد لها نظير فى ماضيهم ، وكان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قد ابلغ رسالته ، بأمر ربه ، الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان ، فهزءوا وامتنعوا ، وناصبوه وقومه الشر ، وأخافوا السابلة ، وضيقوا على المتاجر ، فبعث اليهم البعوث فى حياته ، وجرى على سنته الأئمة من صحابته ، طلبا للأمن وابلاغا للدعوة ، فاندفعوا فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم ، وانهالوا به على تلك الامم

---

(١) الانفال : ٣٧ .

فى قوتها ومنعتها ، وكثرة عددها ، واستكمال أهبهـا وعددها ، فظفروا منها بما هو معلوم .

وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها ، واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين ، وأباحوا لهم انبقاء على أديانهم ، واقامة شعائرها آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم ، يمنعونهم ما يمنعون منه أهلهم وأموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءا قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة .

كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة اتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة الى دينها يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر ، وبرهانهم الغلبة ، وحجتهم القوة ، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ، ولم يعهد فى تاريخ فتوح الاسلام ان كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة ، يأخذون على أنفسهم العمل فى نشره ، ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ، ومحاسنتهم المعاملة ، وشهد العالم بأسره ان الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا واحسانا عندما كان يعدها الأوربيون ضعة وضعفا .

رفع الاسلام ما ثقل من الاتاوات (١) ، ورد الأموال المسلوبة الى أربابها ، وانتزع الحقوق من مغتصبيها ، ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير

---

(١) عند فتح العرب لمصر كان الفلاح المصرى يدفع للدولة البيزنطية أكثر من ثلاث عشرة ضريبة ، اختصرها العرب الى ضريبتين اثنتين ، معلومتى المقدار وميعاد السداد ، متناسبتين مع الوضع الاقتصادى الذى يعيش فيه . أنظر دراستنا عن (أرض مصر وفلاحها من الفتح العربى الى الاقطاع الحربى) بكتابنا (نظرة جديدة الى التراث) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .

المسلم . بلغ أمر المسلمين فيما بعد ان لا يقبل الاسلام من داخل فيه الا بين يدى قاض شرعي باقرار من المسلم الجديد انه اسلم بلا اكراه ولا رغبة فى دنيا ، وصل الأمر فى عهد بعض الخلفاء الأمويين ان كره عمالهم دخول الناس فى دين الاسلام لما رأوا انه ينقص من مبالغ الجزية ، وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة (١) . عرف لخلفاء المسلمين وملوكهم ، فى كل زمن ، ما لبعض أهل الكتاب ، بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الأعمال ، فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى اسبانيا . اشتهرت حرية الاديان فى بلاد الاسلام حتى هجر اليهود اوروبا فرارا منها بدينهم الى بلاد الأندلس وغيرها .

هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم ، لم يفعلوا شيئا سوى انهم حملوا الى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته ، وألقوا بذلك بين أيديهم ، وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ، ولم يستعملوا لاكراههم عليه شيئا من القوة ، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه ، فما الذى أقبل بأهل الأديان المختلفة على الاسلام ، وأقنعهم أنه الحق ، دون ما كان لديهم ، حتى دخلوا فيه أفواجا ، وبذلوا فى خدمته ما لم يبذل له العرب أنفسهم ؟! .

---

(١) أنظر : فان فلوتن (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية) ص ٥٢ وما بعدها . ترجمة د. حسن ابراهيم حسن ، محمد زكى ابراهيم . الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

ظهور الاســلام ، على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية ، وتغلبه على ما كان فيهــا من رذائل الأخلاق وقبائح الأعمال ، وسيره بسكانها على الجادة القويمة ، حقق لقراء الـكتب الالهية السابقة ان ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيل ، وان هذا الدين هو ما كانت تبشر به الأنبياء اقوامهــا من بعدهما ، فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا الى البقاء على العناد فى مجاحدته ، فتلقوه شاكرين ، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين .

اوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم الى النظر فيه ، فوجدوا لطفــا ورحمة ، وخيرا ونعمة ، لا عقيدة ينفر منها العقل ، وهو رائد الايمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية ، وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق . رأوا ان الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بهــا عن العالم السفلى ، ويلحقها بالملكوت الأعلى ، ويدعوها الى احياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم ، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبـــات ، ولا يفرض من الرياضيات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه ، متى حسنت النية وخلصت السريرة فاذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الالهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الأوبة . تبدت لهم سذاجة الدين عندما قرأوا القرآن ، ونظروا فى سيرة الظاهرين من حامليه اليهم ، وظهر لهم الفرق بين ما لا سبيل الى فهمه ، وما تكفى جولة نظر فى الوصول الى علمه ، فتراموا اليه خفافا من ثقل ما كانوا عليه . كانت الامم

تطلب عقلا فى دين ، فوافاها ، وتتطلع الى عدل فى ايمان ، فأتاها ، فما الذى يحجم بها عن المسارعة فى طلبتها والمبادرة الى رغبتها ؟؟ . كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق ، وكان من حكمها ان لا يقام وزن لشئون الأدنين متى عرضت دونها شهوات الأعلين ، فجاء دين يحـــدد الحقوق ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة ان تأبى بيع بيت صغير بأية قيمـــــة لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير ، وما كان يريده لنفسه ، ولكن ليوسع به مسجدا ، فلما عقد العزيمة على دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الأمير على ما كان منه (١) !! عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن ابى طالب أمام القاضى ، وهو من نعلم من هو ، ويستوقفه للتقاضى ، الى ان قضى الحق بينهما . هذا وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذى حببه الى من كانوا أعداءه ، ورد اليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه .

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الاسلام ، فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غــيرهم ، ولم تستشعر قلوبهم عــداوة لمن خالفهم الا بعد أن يحرجهم الجار ، فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ، ثم لا يكون الا طائفا يحل ثم يرتحل ، فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما ألفته من اللين والمباشرة . ومع ذلك ــ بل وغفلة المسلمين عن الاسلام ، وخذلانهم

(١) الامير هو عمرو بن العاص ، والى مصر ، والمرأة قبطية مسيحية .

له ، وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم — لم يقف الاسلام فى انتشاره عند حد ، خصوصا فى الصين وفى أفريقيا ، ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الأخذ بعقائده ، على بصيرة فيما تنزع اليه ، لا سيف وراءها ، ولا داعى أمامها ، وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه ، مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه .

ومن هذا تعلم أن سرعة الدين الاسلامى ، واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة ، انما كان لسهولة تعقله ، ويسر أحكامه ، وعدالة شريعته ، وبالجملة ، لأن فطر البشر تطلب دينا ، وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها ، وأقرب الى قلوبها ومشاعرها ، وأدعى الى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة ، ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذا ، والى العقول مخلصا ، بدون حاجة الى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة والأوقاف الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لاسقاط النفوس فيه . هذا كان حال الاسلام فى سذاجته الأولى وطهارته التى أنشأه الله عليها ، ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض أطراف الأرض الى اليوم .

***

قال من لم يفهم ما قدمناه ، ولم يرد أن يفهمه : ان الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف ، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالأخرى ، يعرضون القرآن على المغلوب ، فان لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته . سبحانك هذا بهتان عظيم !! . ما قدمناه من معاملة

المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الأخبار تواترا صحيحا ، لا يقبل الريبة فى جملته ، وان وقع اختلاف فى تفصيله ، وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن أنفسهم وكفا للعدوان عنهم ، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا انهم جاوروهم فكان الجوار طريق العلم بالاسلام ، وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه .

لو كان السيف ينشر دينا فقد عمل فى الرقاب للاكراه على الدين والالزام به ، مهددا كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة ، ومع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها ، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة ، واستمر فى شدته بعد مجىء الاسلام سبعة اجيال او يزيد ، فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام فى أقل من قرن ، هذا ولم يكن السيف وحده ، بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته ، مع غيرة تفيض من الأفئدة ، وفصاحة تتدفق من الألسنة ، وأموال تخلب ألباب المستضعفين . ان فى ذلك لآيات للمستيقنين .

جلت حكمة الله فى أمر هذا الدين . سلسبيل حياة نبع فى القفار العربية ، أبعد بلاد الله عن المدنية ، فاض حتى شملها ، فأحياها حياة شعبية ملية ، علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها ، وتعلو أهل الأرض بمدنيتها ، زلزل هديره — على لينه —

بما كان استحجر من الأرواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها .

قالوا : كان لا يخلو من غلب (بالتحريك) . قلنا : تلك سنة الله فى الخلق ، لا تزال المصـــارعة بين الحق والباطل ، والرشد والغى قائمة فى هذا العالم الى ان يقضى الله قضاءه فيه . اذا ساق الله ربيعا الى أرض جدبة ، ليحيى ميتها وينقع غلتها وينمى الخصب فيها ، أفينقص من قدره ان أتى فى طريقه على عقبة فعلاها ، أو بيت رفيع العماد فهوى به ؟؟ .

سطع الاسلام على الديار التى بلغها أهله ، فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه الا أن يســـمعوا كلام الله ويفقهوه ، اشتغل المســلمون بعضهم ببعض زمنا ، وانحرفوا عن طريق الدين أزمانا فوقف وقفة القــائد خذله الأنصار ، وكاد يتزحزح الى ما وراء ، لكن الله بالغ أمره ، فانحدرت الى ديار المسلمين امم من التتار يقودها « جنكيز خان » ، وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل (١)، وكانوا وثنيين جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ، ولم يلبث أعقابهم ان اتخذوا الاســلام دينا وحملوه الى اقوامهم ، فعمهم منه ما عم غيرهم ، جاوءا لشــقوتهم فجاءوا بسعادتهم .

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة ، لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شـــعوبه الا اشترك فيها ، واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من

(١) كان ذلك منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

مائتى سنة (١) ، جمع فيها للغربيين من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل،وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم ، وزحفوا على ديار المسلمين ، وكانت فيهم بقية من روح الدين ، فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية ، وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها ، لم جاءوا ؟ وبماذا رجعوا ؟؟ .

ظفر رؤساء الدين فى الغرب باثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاءون من سكان الشرق ، او يستولى سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لأنفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية . جاء من الملوك والأمراء وذوى الثروة والأعلياء جم غفير ، وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدروه بالملايين ، استقر المقـام بكثير من هـــؤلاء فى ارض المســلمين ، وكانت فترات تنطفىء فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها ، تنظر فى أحوال المجاورين ، وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بما ترى وما تسمع ، فتبينت ان المبالغات التى أطاشت الأحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة ، ثم وجدت حرية فى دين ، وعلما وشرعا وصنعة ، مع كمـال فى يقين ، وتعلمت ان حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادى عليه ، ثم جمعت من الأدب ما شاء الله وانطلقت الى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها .
هذا ما كسبه السفار من أطراف الممالك الى بلاد الأندلس

---

(١) فى الحروب الشهيرة بالحروب الصليبية (١٠٩٦ ـ ١١٩٢ م) .

بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا ، وأخذت الأفكار فى ذلك العهد تتراسل ، والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين ، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ، ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين والأخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه ، وحرفوا فى معناه ، ولم يكن بعد ذلك الا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته ، جاءت فى اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح فى العقائد الى ما يتفق مع عقيدة الاسلام الا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وان ما هم عليه انما هو دينه، يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى ، الا فى صورة العبادة لا غير .

ثم أخذت أمم أوروبا تفتك من أسرها ، وتصلح من شئونها ، حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا اليه الاسلام ، غافلة عن قائدها ، لاهية عن مرشدها ، وتقررت أصول المدنية الحاضرة التى تفاخر بها الأجيال المتأخرة من سبقها من أهل الأزمان الغابرة . هذا طل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا ، وعادوا ليفيدوا ، ظن الرؤساء أن فى اهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم ، وتقوية ركنهم ، فباءوا بوضوح شأنهم ، وضعضعة سلطانهم وما بيناه فى شأن الاسلام ، ويعرفه كل من تفقه فيه ،

قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا انه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم . والى الله عاقبة الأمور (١) .

---

(١) فى الفصل الخاص بالقرآن أشرنا الى تبنى الامام لرأى ذلك الحكيم الغربى الذى أرجع الاصلاح الدينى فى أوربا المسيحية الى تعاليم الاسـلام المقتبسة من أهله .. وهنا يعود الاستاذ الامام للحديث عن هذا الامر مشيرا الى « الاداب التى جمعها الصليبيون المحاربون فى المشرق ، والمكاسب العلمية التى اكتسبها « سفراء » أوربا من الاندلس ، وثمرة كل ذلك التى تجسدت فى حركة الاصـلاح الدينى المسـيحية ، وكيف جاء المذهب الجـديد ـ البروتستانتية ـ قاب قوسين أو أدنى من الاسلام .. وللمرحوم الاستاذ أمين الخولى بحث نفيس فى هذا المقام عنوانه «صلة الاسلام باصلاح المسيحية» « سنة ١٩٣٥ م » قدم فيه دراسة علمية تثبت بالادلة والبراهين ما أشار اليه فى اجمال هنا الاستاذ الامام .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الاستاذ الخولى قد عاب فى نهاية بحثه على الشيخ رشيد رضا وضعه فى الطبعة السابعة منرسالة التوحيد سنة ١٣٥٣ هـ سنة ١٩٣٤ م وضعه لهذه الفقرة عنوانا فرعيا هو « اقتباس الاصلاح الدينى فى أوربا من الاسلام » بحجة أن كلام الاستاذ الامام لا يشير الى الاقتباس ، ولكننا نرى ان نص الاستاذ الامام يشهد بسبقه « بالاشارة » الى ما أبدع فى دراسته بعد ذلك الاستاذ الخولى عليهم جميعا رحمة الله .

إيراد سهل الإيراد

يقول قائلون : اذا كان الاسلام انمـــا جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق ، وقال كتابه : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء) (١) ، فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب ، وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟؟ .

اذا كان الاسلام موحدا فما بال المسلمين عددوا ؟ اذا كان موليا وجه العبد وجهـــة الذى خلق السماوات والأرض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعـــا ولا ضرا ولا يستطيع من دون الله خيرا ولا شرا ؟ ، وكادوا يعـــدون ذلك فصلا من فصول التوحيد ؟! . اذا كان أول دين خاطب العقل ، ودعاه الى النظر فى الأكوان ، وأطلق له العنـــان يجول فى ضمائرها بما يسعه الامكان ، ولم يشرط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الأيمــــان ، فما بالهم قنعوا باليسير ، وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظنا منه أنه قد يرضى الله بالجهل واغفال النظر فيما ابدع من

---

(١) الانعام : ١٥٩ .

محكم الصنع ؟! . ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة اصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ؟ . ما بالهم بعد ان كانوا قدوة فى الجد والعمل ، أصبحوا مثلا فى القعود والكسل ؟ . ما هذا الذى ألحق المسلمون بدينهم ، وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوا وبين ما دعاهم اليه فتركوه ؟! .

اذا كان الاسلام فى قربة من العقول والقلوب ، على ما بينت فما باله اليوم — على رأى القوم — تقصر دون الوصول اليه يد المتناول ؟ ، اذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه ، فمال بال قراء القرآن لا يقرءونه الا تغنيا ، ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم الا تظنيا .

اذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال، فما بالهم شدوهما الى اغلال ، أى اغلال ؟! ، اذا كان قد أقام قواعد العدل ، فما بال أغلب حكامهم يضرب به المثل فى الظلم ؟ ، اذا كان الدين فى تشوف الى حرية الأرقاء ، فما بالهم قضوا قرونا فى استعباد الاحرار ؟ ، اذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء ، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟! ، اذا كان الاسلام يحظر الفيلة ويحرم الخديعة ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من أهله ، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه ؟، اذ كان قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فما هذا الذى نراه بينهم فى السر والعلن والنفس والبدن ؟ ، اذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ، خاصتهم وعامتهم ، و (ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق

وتواصوا بانصبر) (١) ، وانهم ان لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم ، فيدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم ، وشدد فى ذلك بما لم يشدد فى غيره ، فمـــا بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق ، ولا يعتصمون بصبر ، ولا يتناصحون فى خير ولا شر ، بل ترك كل صاحبه والقى حبله على غاربه ، فعاشوا أفذاذا (٢) ، وصاروا فى أعمالهم افرادا ، لا يحس أحدهم بما كان من عمل أخيه كأن ليس منه ، وكأن لم تجمعه معه صلة ، ولم تضمه اليه وشيجة ؟! ما بال الابناء يقتلون الآباء ؟ ، وما بال البنات يعققن الأمهات ؟ أين وشائج الرحمة ؟ ، أين عاطفة الرحم على القريب ؟؟ ، أين الحق الذى فرض فى أموال الأغنياء للفقراء وقد أصبح الأغنياء يسلبون ما بقى فى أيدى أهل البأساء ؟! ..

قبس من الاسلام أضاء الغرب ، كمـــا تقول ، وضوءه الأعظم وشمسه الـكبرى فى الشرق ، وأهله فى ظلمات لا يبصرون .. أصح هذا فى عقل ، أو عهد فى نقل ؟! الم تر الى الذين تذوقوا من العلم شيئا ، وهم من أهل هذا الدين ، أول ما يعلق بأوهام أكثرهم ان عقـــائده خرافات ، وقواعده وأحكامه ترهات ، ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممن سموا انفسهم أحرار الأفـكار وبعداء الأنظار ؟ والى الذين قصروا هممهم عـلى تصفح أوراق من كتبه ، ووسموا انفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه ، كيف يجافون علوم النظر ويهزءون بها ، ويرون العمل فيها عبثا فى الدين والدنيا ، ويفتخر

---

(١) العصر : ٢ ، ٣ .

(٢) افرادا متفرقين فى الفردية ، ضد التضامن والجماعية .

الكثير منهم بجهلها ، كأنه فى ذلك قد هجر منكرا ، أو ترفع عن دنيئة ؟! .

فمن وقف على باب العلم من المسلمين تجد دينه كالثوب الخلق ، يستحى أن يظهر به بين الناس ، ومن غرته نفسه بأنه على شيء من الدين ، وانه مستمسك بعقائده يرى العقل جنة (١) والعلم ظنة !! ليس فى هذا ما يشهد الله وملائكته والناس على ان لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟؟ !! .

***

الجـواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم ، بل من عدة أجيال ، وربما كان ما جاء فى الايراد قليلا من كثير ، وقد وصف الشيخ الغزالى ، رحمه الله ، وابن الحاج ، وغيرهما من أهل البصر فى الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم ، عامتهم وخاصتهم ، بمـــــا حوته مجلدات ، ولكن قد أتيت فى خاصة الدين الاسلامى بما يكفى للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن ، مع التدقيق فى فهم معانيه ، وحملها على ما فهمه أولئك الذين انزل فيهم وعمل به بينهم ، ويكفى فى الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات فى التاريخ على ما كتبــه محققو ومصنفو سائر الأمم ، فذلك هو الاسلام .

وقد أسلفنا ان الدين هدى وعقل ، من أحسن فى استعماله والأخذ بما أرشد اليه نال من السعادة ما وعد

---

(١) الجنة ، بكسر الجيم وتشديد النون المفتوحة : من معانيها : الجنون ، وهو المراد هنا .

الله أتباعه . وقد جرب علاج الاجتماع الانسانى بهـذا الدواء ، فظهر نجاحه ظهـــورا لا يستطيع معه الأعمى انكارا ، والأصم اعراضا . وغاية ما قيل فى الايراد : ان أعطى الطبيب الى المريض دواء ، فصح المريض ، وانقلب الطبيب بالمرض الذى كان يعمل لمعالجته ، وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لا يتناوله ، وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه ، وهو فى يأس من حياته ، ينتظر الموت ، أو تبدل سنة الله فى شفاء امثاله .

كلامنا اليوم فى الدين الاسلامى وحاله على ما بينا ، أما المسلمون ، وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن ، وسيكون الـكلام عنهم فى كتاب آخر (١) ان شاء الله .

(١) تعد كتابات الاستاذ الامام التى تتناول علاقة الاســلام بالحضـارة ووضع المسلمين ازاءها وفاء بوعده هذا ، وهى مقالات وأبحاث جمعناها فى « أعماله الكاملة » . أما فى حياته فلم يخرج كتابا متكاملا فى هذا الموضوع

التصديق بما جاء به
محمد "صلى الله عليه وسلم"

بعد أن ثبتت نبوته ، عليه السلام ، بالدليل القاطع ، على ما بينا ، وأنه انما يخبر عن الله تعالى ، فلا ريب انه يجب تصديق خبره ، والايمان بما جاء به ، ونعنى بما جاء به ما صرح به فى الكتاب العزيز ، وما تواتر الخبر به تواترا صحيحا مستوفيا لشرائطه ، وهو : « ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة فى أمر محسوس » .

ومن ذلك أحوال ما بعد الموت ، من بعث ، ونعيم فى جنة وعذاب فى نار ، وحساب على حسنات وسيئات ، وغير ذلك مما هو معروف . ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر ، ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعى بظنى . وشرط صحة الاعتقاد ان لا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الالهى عن مشابهة المخلوقين ، فان ورد ما يوهم ظاهره ذلك فى المتواتر وجب صرفه عن الظاهر ، اما بتسليم الله فى العلم بمعناه ، من اعتقاد أن الظاهر غير مراد ، أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة .

أما أخبار الآحاد فانه يجب الايمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها ، أما من لم يبلغه الخبر ،

أو بالله وعرضت له شبهة فى صحته ، وهو ليس من المتواتر ، فلا يطعن فى ايمانه عدم التصديق به . والأصل فى جميع ذلك : ان من انكر شيئا وهو يعلم ان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، حدث به ، أو قرره فقد طعن فى صدق الرسالة وكذب بها ، ويلحق به من اهمل فى العلم بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة ، وهو ما فى الكتاب وقليل من السنة فى العمل .

من اعتقد بالكتاب العزيز ، وبما فيه من الشرائع العملية ، وعسر عليه فهم اخبار الغيب على ما هى فى ظاهر القول ، وذهب بعقله الى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها ، مع الاعتقاد بحياة بعد الموت ، وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد ، بحيث لا ينقص تأويله شيئا من قيمة الوعد والوعيد ، ولا ينقص شيئا من بناء الشريعة فى التكليف ، كان مؤمنا حقا (١) ، وان كان لا يصح اتخاذه قدوة فى تأويله ، فان الشرائع الالهية قد نظر فيها الى ما تبلغه طاقة العامة لا الى ما تشتهيه عقول الخاصة . والأصل فى ذلك ان الايمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد فى ذلك الا احترام ما جاء على ألسنة الرسل .

---

(١) هذه المسألة من المسائل التى أثارت جدلا قديما بين المفكرين ، فالغزالى مثلا ، يرى تكفير من ينكر الاوصاف الحسية لما بعد الموت وللمعاد بوجه خاص ، بما فى ذلك حشر الاجساد والعقوبات الحسية . بينما يرى ابن رشد أن هذه الاوصاف الحسية « تمثيل » يهدف الى الاقناع للجمهور ، لان « تمثيل المعاد لهم بالامور الجسمانية أفضل من تمثيله بالامور الروحانية » .. والاستاذ الامام هنا يميل الى رأى ابن رشد فى هذا الموضوع . أنظر (فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة) للغزالى ص ٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ م و (تهافت التهافت) لابن رشد ص ١٣٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م

بقيت علينا مسئلتان ، وضعتا من هذا العلم فى مكان من الاهتمام ، وما هما منه الا حيث يكون غيرهما مما اجملنا القول فيه :

الاولى : جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة .

والأخرى : جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات ، من غير الأنبياء ، من الأولياء والصديقين .

رؤية الله

أما الأولى ، فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى الى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع ، فان القائلين بجواز الرؤية من هل التنزيه متفقون على ان الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا فى مجرى العادة ، بل هى رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ، ومثلها لا يكون الا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة أو تتغير فيه خاصته المعهودة فى الحياة الدنيا ، وهو ما لا يمكننا معرفته ، وان كنا نصدق بوقـــوعه متى صح الخبر ، والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها ، فسواء كان ذلك بالبصر الغير المعهود أو بحاسة أخرى فهو فى المعنى يرجع الى قول خصومهم (١) . ولكن منى الاسلام بقوم يحبون الخلاف ، والله فوق ما يظنون .

الكرامات

أما الثانية ، فانكر جواز وقوع الكرامات ابو اسحاق الاسفراييني ، من أكابر أصحاب أبى الحسن الاشعرى ،

---

(١) انظر فى راى المعتزلة حول هذه القضية بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية) ص ٥٥ ـ ٥٧ . (ومنه نعلم ان هذا اللقاء بين الفريقين الذى يتحدث عنه الاستاذ الامام لم يحدث ، ويصعب أن يحدث) .

وعلى ذلك المعتزلة الا أبا الحسين البصرى (١) فقال بجواز وقوعها ، وعليه جمهور الأشاعرة .

واستدل الذاهبون الى الجواز بما جاء في الكتاب من قصة الذى عنده علم الكتاب الواردة فى خبر بلقيس ، من احضاره عرشها قبل ارتداد الطرف (٢) ، وقصة مريم عليها السلام ، وحضور الرزق عندها (٣) ، وقصة أصحاب الكهف (٤) .

واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات، واولوا ما جاء فى الآيات .

اما ان ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات فليس بصحيح ، لأن المعجزات انما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ، ولابد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها ، وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه ، لأن ما فى قصة مريم وآصف (٥) قد يكون بتخصيص من الله تعالى ، لوقوعه فى عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شئون الله فى أنبياء ذلك العهد الا قليلا ، وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله من آياته فى خلقه ، وذكرنا بها

---

(١) هو عبدالله الحسين بن على البصرى « ٣٥٨ ــ ٣٩٩ هـ » كان تلميذا لابى هاشم عبد السلام بن محمد الجبائى ، وهو معدود فى الطبقة العاشرة من طبقات المعتزلة . أنظر المنية والامل ص ٦٢ ــ ٦٦ .

(٢) الاشارة الى قوله تعالى « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك) الاية « النمل : ٤ » .

(٣) الاشارة الى قوله تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) . « آل عمران : ٣٧ » .

(٤) الاشارة الى قصة أصحاب الكهف ونومهم الطويل ثم يقظتهم . آنظر سورة الكهف (الآيات ٩ وما بعدها) .

(٥) أى زكريا .

لنعتبر بمظاهر قدرته ، فليست من قبيل ما الـكلام فيه من عموم الجواز .

فبقى البحث فى جواز وقوع الكرامات نوعا من البحث فى متناول همم النفـوس البشرية وعلاقتها بالـــكون الـكبير ، وفى مكان الأعمال الصالحة ، وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية الالهية ، وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر (١) .

أما مجرد الجواز العقلى ، وان صدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الالهية ، فلا ظن انه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء ، وانمـــا الذى يجب الالتفات اليه هو أن أهل السنة وغيرهم فى اتفـاق على انه لا يجب الاعتقـاد بوقـوع كرامة معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الاسلام فيجوز لكل مسلم ، باجماع الأمة ، أن ينكر صدور اى كرامة كانت من اى ولى كان ، ولا يكون بانكاره هذا مخالفا لشىء من أصول الدين ، ولا مائلا عن سنة صحيحة ، ولا منحرفا عن الصراط المستقيم .

أين هذا الأصل المجمع عليـه مما يهـذى به جمهور المسلمين فى هـذه الأيام ؟ حيث يظنون ان الـكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها همم الأصفياء ؟!! .. وهو مما يبرأ منه الله ودينه وأولياؤه واهل العلم اجمعون .

---

(١) هو التصوف .

خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَعدَ اللهُ الذينَ آمنوا مِنكُم وَعمِلوا الصالِحاتِ لَيستَخلِفَنَّهُمْ في الأرض كما استَخلَفَ الذينَ مِنْ قَبلِهِمْ ، وَلَيُمكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهمْ الذي ارْتَضى لَهمْ ، وَلَيُبدِّلَنَّهمْ مِنْ بَعدِ خَوْفِهِم أَمْناً ، يَعبُدُونَني لا يُشرِكُونَ بِي شَيئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعدَ ذَلكَ فَأُولئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ)[1] .

وقد فسّر الكفرُ في هذه الآية بكفر النعمة (وَأَنّا لمّا سَمِعنَا الهُدَى آمنّا بِهِ ، فَمَنْ يُؤمِنْ بِربِّهِ فلاَ يَخافُ بَخساً وَلا رَهقاً وَأَنّا مِنّا المُسلِمُونَ وَمِنّا القاسِطُونَ فَمَنْ أَسلَمَ

---

١ ـ النور : ٥٥ .

فأولئك تحرّوا رشداً ، وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم
حطباً ، وألّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً
لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربّه يسلكه عذاباً
صعداً ، وأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ، وأنّه
لمّا قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ، قل
إنّما أدعو ربّي ولا أشرك به أحداً ، قل إنّي لا أملك لكم
ضرّاً ولا رشداً ، قل إنّي لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من
دونه ملتحداً إلّا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله
ورسوله فإنّ له نار جهنّم خالدين فيها أبدا ، حتّى إذا رأوا
ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقلّ عدداً ، قل
إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربّي أمداً ، عالم
الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً، إلّا من ارتضى من رسول
فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن

قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وأَحاطَ بِمَا لَدَيهِمْ وَأَحْصَى كلَّ شَيْءٍ عَدَداً) (1) .

صدق الله العظيم، و بلّغ رسوله الكريم وخسىء الشيطانُ الرجيم ، وحق الشكر لله رب العالمين الرحمن الرحيم .

---

1 - الجن : 12 - 28 .

مصادر التحقيق

ابن حجر العسقلانى : (تهذيب التهذيب) طبعةحيدر اباد سنة ١٣٢٥ هـ

ابن رشد (ابو الوليد) : (تهافت التهافت) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م

ابن قتيبة : (المعارف) تحقيق : د٠ ثروت عكاشة ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م ٠

ابن المرتضى : (باب ذكر المعتزلة ـ من كتاب المنية والامل) تحقيق : ارنولد ٠ طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ ٠

امين الخولى : (صلة الاسلام باصلاح المسيحية) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٥ م ٠

الحسن البصرى : (رسالة فى القدر) منشوره فى كتاب (رسائل العدل والتوحيد) دراسة وتحقيق : د٠ محمد عمارة ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م ٠

السبكى : (طبقات الشافعية الكبرى) طبعة القاهرة ـ الاولى ٠

طه حسين (دكتور) : (الفتنة الكبرى) طبعة القاهرة ١٩٧٠ م ٠

عبد الجبار بن احمد : (المغنى فى ابواب التوحيد والعدل) طبعة القاهرة ٠

الغزالى (ابو حامد) : (فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ م ٠

فان فلوتن : (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى امية) ترجمة : د٠ حسن ابراهيم حسن ، محمد زكى ابراهيم ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م ٠

محمد عبده (الاستاذ الامام) : (الاعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

محمد عمارة (دكتور) : (المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد) طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م .

(المعتزلة ومشكلة الحرية الانسـانية) طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(نظرة جديدة الى التراث) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .

(الاسلام والمرأة فى رأى الامام محمد عبده) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

محمد فؤاد عبد الباقى : (المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم) طبعة دار الشعب . القاهرة .

مراد وهبـة (دكتـور) (وآخرين) : (المعجم الفلسفى) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

(دائرة المعارف الاسـلامية) طبعة القاهرة ـ العربية ـ الاولى .

الترقيم الدولى ٨ ـ ٧١ ـ ٧٠٣١ ـ ٩٧٧

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨٠/٣٨٤٧

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

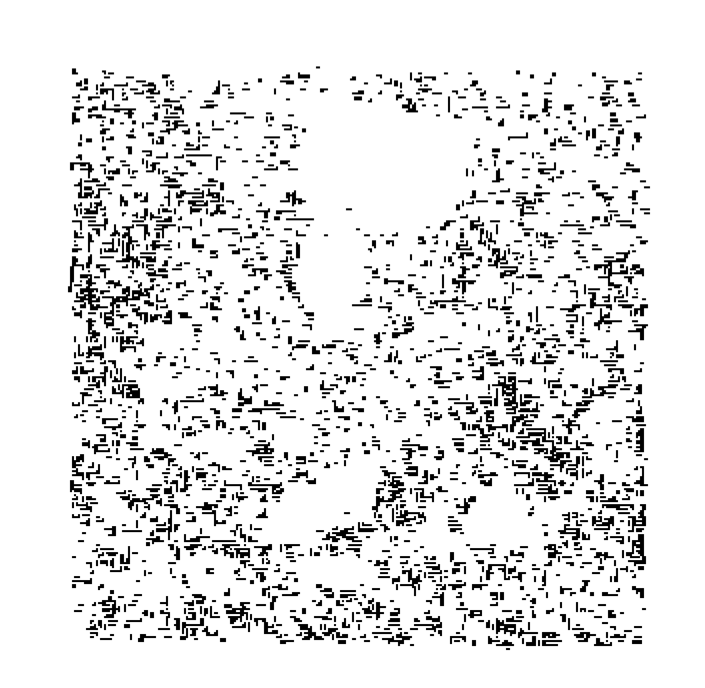
جدة - ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من « كتاب الهلال » الشهرى بسعر ٢٠ قرشا للقارىء فى مصر .

سوريا : ٣٠٠ ق.س ثلاثمائة قرش سورى
لبنان : ٢٥٠ ق.ل « مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الأردن : ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت : ٣٥٠ فلسا « ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق : ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلس عراقى »
السعودية : ٤ ١/٢ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »



موضوع هذا الكتاب شاهد على قدره وأهميته ‥ فهو يتحدث عن :

● الذات الالهية ● والنبوة والرسالة ★ والقرآن الكريم ● ومكانة الانسان في الاسلام ‥ الخ ‥ الخ ‥

ويزيد من أهميته أن مؤلفه هو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ‥ أعظم العقول العربية التي قادت ثورة الاسلام في العصر الحديث فأبرز الوجه المشرق للدين ، بعد ان تراكمت على فكره الجهالات والخرافات ٠

لقد كانت (رسالة التوحيد) أول كتاب حديث يعرض عقائد الاسلام لجمهور المسلمين ، انطلاقا من القرآن والسنة ، وفي ضوء العقل المستنير ‥ فجمعت الى شرف الموضوع : عظمة المؤلف ، وعلمية المنهج ، وسلاسة الاسلوب !

فاذا أضيف الى ذلك ان دارسها ومحققها هو الدكتور محمد عمارة الذي قدم للمكتبة العربية الاسلامية ـ ضمن ما قدم : ـ (الاعمال الكاملة للامام محمد عبده) ‥ كان من حق « كتاب الهلال » ان يفخر عندما يقدم لقرائه (رسالة التوحيد) لتسهم في تنقية عقائد المسلمين من البدع والخرافات ‥ وأيضا ، لتكون تحية لذكرى الاستاذ الامام الذي توفي في مثل هذا الشهر منذ خمس وسبعين عاما ؟! ٠

